روايات غادة

غادة

زواجٌ مؤقّت

www.elromancia.com

مرمورية

دار العلم للجميع
بيروت - لبنان

روايات غادة

زواج مؤقت

عقد باتريك دوبارت صفقة مع آنابيلا على أن تكون أماً لولديه، بعد أن أوضح لها أنه ليس بحاجة الى زوجة.

المفاجئة كانت أن الولدان أوضحا لها بما لا يقبل الشك أنهما كذلك ليسا بحاجة الى أم... حتى المربية كانت عدائية معها... وهكذا أوجدت نفسها في أرض غريبة، وجو معادي... فإلى أين المفر... خاصة وقد تحرك قلبها الخائن ليحب باتريك، وولديه.

يطلب من مكتبة الصفاء
ابو ظبي
تلفون ٧٧٢٠٥٣

يطلب من دار إحياء العلوم
الدار البيضاء
تلفون 319411

يطلب من شركة دار الفكر
تونس
تلفون 564785

وكيل التوزيع الوحيد في الكويت
الطعني للنشر والتوزيع
تلفون ٣٧٢٨٩٩

www.elrmeach.com

- ١ -

الورطة!

كان المطعم صغيراً أنيقاً، تنيره قناديل صغيرة شاحبة مركزة على طاولاته، تعطي نوراً حالماً كانت معظم الإناث هناك مسرورات به... ما عدا الفتاة الجالسة على طاولة لإثنين في المنتصف... فتاة شابة، بالرغم من أنها ليست في بداية صباها إلا أن وجهها طفولي يحيط به شعر أسود يعطيه نضارة أكثر. عيناها كانتا سوداوين كذلك، صوتها كان بجمال وجهها وعزوبته :

ـ لا فائدة من كل هذا... قلت لك انني لا أريد. وإذا كانت هذه نظرتك إلي، فلا أرى فائدة من استمرارنا هكذا.

كانت تتكلم دون حرارة، وانتظرت بصمت حتى رحل الساقي بعد أن أخذ من أمامهما أطباق الطعام وطلبت الحلوى. نظر الرجل الجالس قبالتها بغضب وقال :

ـ انت غبية آنا... الجميع يخرج في نزهات عند نهايات الأسبوع، فلماذا لا تفعلين أنت؟ هل كنت تتصورين أنني سأطلب منك الزواج؟

يا إلهي... ستمر سنوات قبل حصولي على مركز لائق. ولا استطيع الصرف على زوجة، وبكل تأكيد زوجة لا مال لديها. هيا الآن كوني رياضية.

قدم الساقي لهما الحلوى وانسحب... فقالت آنا بهدوء:

- لا بد أنني أكثر فتاة روح رياضية لها على بعد مئات الأميال من هنا.

بقيت هادئة وهو يقف على قدميه بعنف، ودون أية كلمة، تركها مبتعداً بسرعة بين الطاولات حتى أن الجالسين كانوا يتوقفون عن الكلام ليحدقوا به باستغراب. التقطت آنا الملعقة بيد ترتجف قليلاً، وبدأت تأكل الحلوى... كم كانت تود لو تقف وتترك المطعم بدورها...

لكن واقع أن ليس معها سوى حفنة صغيرة من المال منعتها. عما قليل ستأتيها الفاتورة التي لن تتمكن من دفعها... ويبدو من المستحيل أن يعود غريغ. وابتلعت الحلوى بصعوبة... لا يجب أن تبكي، ولا يجب أن تتلفت حولها كثيراً... وقبل أي شيء يجب أن لا يظهر عليها القلق. يجب أن تؤخر وصول الفاتورة قدر استطاعتها.

اجبرت نفسها على أن تطيل وقت ارتشافها القهوة أيضاً... وهي تعرف أن الجالسين حولها أخذوا يتطلعون إليها باستغراب وفضول... وتقدم الساقي اليها:

- الن يعود السيد؟ أترغب السيدة في دفع الفاتورة؟

وضع الطبق الصغير وفوقه الفاتورة أمامها، وانسحب... بعد دقيقة استجمعت شجاعتها لتنظر إليها... المبلغ صدمها... كيف

ستدفعه؟ حتى لو سمحوا لها بالعودة إلى المنزل لاحضاره، فكيف ستحضره؟ الوقت يكاد يكون آخر الشهر، وهي، مع صديقاتها قد لا يملكن أكثر من جنيهات معدودة. ستموت خجلاً بكل تأكيد، ولن تسامح غريغ إلى الأبد.

كانت قد انجذبت إليه منذ أول لقاء لهما... فقد وصل الشركة كمساعد رئيس قسم الحسابات، وكانا يشاهدان بعضهما كثيراً بحكم عملها في قسم السكرتاريا التابع لقسم الحسابات، وأعجبت بطلعته السمراء، واهتمامه الواضح في شق طريقه في عمله، وكم سرها، وأرضى غرورها، حين طلبها سكرتيرة له، حتى إن التقت به، لم ترغب في الزواج من أي رجل تعرفت عليه... فهي لم تكن لديها فكرة واضحة عن مواصفات الرجل الذي قد ترغب في الزواج منه... حتى حين وجدت نفسها منجذبة إلى غريغ، لم تجد أنه يحمل صفات فارس الأحلام. لكن هذا لم يهمها فقد كان له شوق دائم ملهوف لرؤيتها... أما الآن فقد أصبح واضحاً وبشكل رهيب أنها كانت مخطئة... وأحست بالغثيان والخجل، وبالرغم من معاملته السيئة لها كانت تتمنى لو يعود، وستكون غبية لدرجة مسامحته.

كانت منغمسة في سعادتها برفقة غريغ حتى أنها لم تشاهد أي شيء حولها غيره، وإلا للاحظت وجود رجل كان يحدق بها باستمرار. كان يجلس إلى طاولة بجانب طاولتها، بمشاركة زوجين أنيقين يواجهانها. كان ضخم البنية أسود الشعر يغزو فوديه المشيب، له وجه قاسي الملامح، إنما جميل الطلعة، ولم تستطع رؤية عينيه من النظرة السريعة التي استرقتها إليه.

حركتها لابعاد نظرها عنه، جعلتها للأسف تنظر باتجاه الساقي الذي استنتج، و هو منتظر، إنها تريد دفع الفاتورة فتقدم نحوها. ولا بد أن الرجل الذي كان يراقبها تحرك بسرعة، فقد وصلها ليقف أمامها، بارتياح كامل بوصول الساقي إليها.

قال لها مبتسماً بصوت مستساغ :

ـ مرحباً... كم أنا سعيد لرؤيتك مجدداً... كنت سأتقدم نحوك أبكر من هذا... لكنني ظننتك تنتظرين أحداً...

طافت عيناه بالطاولة :

ـ انهيت قهوتك؟ كنت أنوي الطلب منك الانضمام إلينا بينما تنتظرين مرافقك.

أحست آنا بارتخاء فكها، وانفغار فمها، فوقفت :

ـ أجل... لكن على الأقل أظنه لن يعود... لست واثقة... أنا...

التقط الفاتورة، ودس يده في جيبه.

ـ في هذه الحالة سأدفع الفاتورة... وسيقى مديناً لي بقيمتها إلى أن نلتقي ثانية... سأرافقك إلى منزلك.

وضع المال على الفاتورة، ونظر إلى الساقي ببرود، ثم ابتسم لها.

ـ صديقاي سيغادرا المطعم على أي حال... مضى زمن طويل منذ آخر مرة شاهدتك فيها... وهناك الكثير لتتحدث عنه.

ردت آنا بالإيجاب بصوت خفيف، ثم اطلقت تنهيدة ارتياح ما أن تخرج فستشرح له ما حدث لها وتشكره لمساعدتها على الخروج من ورطتها... وابتسم الساقي لهما وانحنى احتراماً وهي تخرج

من الباب. رأسها الجميل مرتفع... تحسن كثيراً بوجود الرجل الطويل القامة، الذي دعمها.

لم يسيرا سوى بضع خطوات بعيداًعن أبواب المطعم حتى توقفت : ورفعت بصرها إليه، لتقول بصوت متخشب من شدة الحرج :

ـ لطف كبير منك... لو اعلمتني بعنوانك سأرسل لك المال في الصباح الباكر.

ثم اطرقت لتحاول أن تشرح له ما حدث :

ـ قال إنه... مضطر للمغادرة... ولا بد أنه نسي أمر الفاتورة...

تلاشى صوتها فجأة... ولم تعد تستطيع كبح نفسها... فامتزج الغضب بالإذلال والخوف، ليشكلا شهقة بكاء... والأسوأ أن عينيها امتلأتا دموعاً ولم تستطع منع نفسها من البكاء، وهي من لم تبك من قبل. لكنها مسحت الدموع بيد مرتجفة وأكملت بصوت مرتفع قليلاً بسبب ما تحس به :

ـ هذا غير صحيح... لقد تركني لأنني رفضت قضاء نهاية الأسبوع معه على الشاطىء...

وشهقت، ثم ارتفع صوتها أكثر :

ـ ظننته سيطلب الزواج مني... حتى أنني اشتريت ثوباً جديداً.

لم يبتسم مرافقها وهو يرد بطريقة جعلت كلامه اطراءً جميلاً :

ـ إنه فستان جميل. سأستدعي سيارة أجرة لأوصلك إلى منزلك.

www.elromancia.com

ـ شكراً لك، لا حاجة لأن تزعج نفسك بالمجيء معي... أنا على ما يرام الآن... وأشكرك كثيراً...

ـ مع كل هذا، وإذا كنت تستطيعين تحمل رفقتي، سأرافقك إلى منزلك آنسة...؟

ـ نيكولز... آنا بيلا نيكولز... لكن ماذا عن صديقيك؟

ـ كانا على وشك المغادرة... كنا نودع بعضنا...

رفع ذراعه بينما كانت سيارة أجرة تمر قرب المنعطف... وأعطى بعض التعليمات للسائق، ثم التفت إليها :

ـ اظن فنجان قهوة قبل أن أوصلك سيفيدنا معاً. وطلبت منه التوقف عند أول مقهى رصيف يمر به.

جلسا بصمت إلى أن توقف التاكسي وسأل السائق إذا كان يناسبه هذا المقهى بالذات. فوافق الرجل ورجاه أن ينضم إليهما... وهكذا أصبح لآنا مرافقان وهي تقطع الشارع. واجلساها بلطف وعناية فوق مقعد مرتفع أمام طاولة طويلة ثابتة، واحضر لها ولنفسيهما ثلاثة أكواب من القهوة القوية، ثم تشاركا معها في حديث خفيف مستساغ ووقفا حولها كي لا يرى وجهها المتورم بالبكاء أي من الموجودين.

لم يبدُ على أي من الرجلين الاستعجال، ومضت عشرون دقيقة قبل أن يعودوا إلى التاكسي، بعد أن كاد وجهها يعود إلى طبيعته... وكادت تصل إلى منزلها حين التفتت إليه قائلة :

ـ لا أعرف اسمك بعد؟

ـ دوبارت... باتريك دوبارت.

ـ أوه... انت فرنسي... لكن انكليزيتك مكتملة...

ـ شكراً لك.

توقفت السيارة فخرج منها، وتكلم مع السائق، وسار معها إلى المدخل :

ـ سأدخل الآن... شكراً لك... بإمكاني اكمال الطريق حتى شقتي.

مدت له يدها... لكنه لم يصافحها، بل أمسك بمرفقها وعاد إلى السير :

ـ سأرافقك حتى باب الشقة.

كان الوقت متأخراً، لكن حارس الباب كان لا يزال ساهراً واستمعت إلى الأصوات المعتادة التي تتصاعد عادة من شقته وهما يقطعان الردهة باتجاه المصعد... حين وصلاه مدت يدها ثانية.

ـ لقد كنت أكثر من لطيف معي... ولا استطيع شكرك بما يكفي... ارجوك اعطني عنوانك كي أتمكن من ارسال شيك بالمبلغ إليك في الصباح.

ـ آه... اجل... سأترك لك العنوان عند البواب... وأنا خارج، أيمكن هذا؟ وأنا مسرور لخدمتك... حقاً... ولا تقلقي مثل هذه الخلافات تبدو ضخمة في بدايتها، لكنه سيعود إليك راكعاً.

ـ لكنه قال...

ـ الناس يقولون أشياء غريبة بعض الأحيان.

ابتسمت له بوصول المصعد، ودخلت إليه دون أن تلتفت. ظنت نفسها لن تنام، لكن هذا لم يحدث، فقد نامت على الفور واستيقظت في الصباح لتتناول فطاراً سريعاً ملتهمة قدر ما

www.elromancia.com

تستطيع من التوست وشربت الشاي قبل أن تخرج إلى عملها.

قسم الحسابات كان في الطابق السادس من شركة «الهندسة العالمية» نوافذه تطل على شبكة كثيبة من الشوارع المكتظة وسط لندن، تصطف على جنبيه مباني من القرميد الأحمر قديمة الطراز كانت يوماً الوجه الأجمل للمدينة، ولطالما تمنت آنا بيلا لو أن القسم كان يطل إلى الناحية الأخرى من المبنى حيث شارع مكتظ مشرق من المدينة كله مباني جديدة... ودخلت إلى مكتبها مترددة، لتجد السكرتيرات والموظفين جالسين كل وراء مكتبه، لكن دون أن يكون العمل قد ابتدأ.

لكن سرعان ما رن جرس الهاتف وطلب المدير منها بعض ملفات الحسابات، فأرسلتها له بسرعة مع موظف المراسلة. وانشغلت بإعطاء تعليمات إلى إحدى موظفات الطباعة بخصوص تقرير كان يجب أن تنهيه بالأمس ليقدمه مسؤول القسم إلى اجتماع مجلس الإدارة. وهي تعطي التعليمات، كانت دون وعي تفكر بما سيقوله لها غريغ حين يلتقيا... هل سيتجاهلها، أم أنه سيعاملها وكأنهما لم يتخاصما بالأمس؟ أم أنه سيتصرف «كجنتلمان» ويعتذر لها؟

توزيع المهمات أخذ وقتاً طويلاً، في النهاية وصل السير جيروم فيرست المدير العام للشركة، بوصفه حامل الأسهم الأكثر، فانضم إليها يتفحص المستندات التي يحضرّها القسم للاجتماع المرتقب. والتفت إلى آنا مبتسماً :

ـ نحن نبقيك دائماً مشغولة يا ابنتي؟

ردت بمرح :

ـ هذا صحيح سيدي.

وأكملت تسأل عن موعد بدء الاجتماع... فأمرها السير جيروم :

ـ اعتقد بعد ساعة ونصف... لكنني سأحضر إلى هنا ثانية لأرى بنفسي سير العمل.

ونظر إلى غريغ الذي كان يقف متردداً :

ـ راودون... اذهب ودقق بالتقارير الجاهزة... ارجوك، ودعني أعرف النتيجة... وأريدك العودة إلى قسم السكرتاريا بعد نصف ساعة للإشراف على التقارير النهائية.

ابتعد دون استعجال، وهي تراقب خروجه المتمهل الرشيق الحركات، ظنته كمن يذهب إلى المكتبة ليستعير كتاباً يشغل به وقت فراغه... مظهره مخادع، فبإمكانه الزمجرة بغضب وكأنه الأسد حين يغضب، أو حين يكون مضطراً لمعالجة أمر مهم مستعجل من أمور شركته... صحيح أنه كان يرعب معظم الموظفين، لكنها هي شخصياً كانت صلبة أكثر، ولا تهتم مطلقاً حين يهاجمها لشيء أو آخر، والذي عادة تكون لا علاقة لها به... ثم تتقبل اعتذاره بنفس الروح التي يقدمه بها... كانا كصديقين حميمين، بطريقة غير شخصية اطلاقاً، يتعاملان بطريقة مهنية عملية، ويتشاركان نظرة مشتركة في نوعية الإخلاص للعمل.

حين دخلت مكتبها وجدت غرايغ راودون يكتب ملاحظاته على التقارير التي أمامه، دون أن يلتفت إليها، وكأنها غير موجودة، فأحست بشرارة غضب تشتعل داخلها... كان يتصرف وكأنها هي المخطئة، وليس هو. وأحست بالسقام مع علمها أنه لو

طلب منها الآن الزواج لوافقت. بالرغم من الواقع الذي ترسخ في مؤخرة رأسها منذ ليلة الأمس.

خرج من المكتب دون أن يتلفظ بكلمة، وباشرت بعملها العادي في ترتيب الأوراق ضمن ملفات، كلّ في مكانه الخاص. ومرت ساعة، لم يبق أمامها سوى عشر دقائق لتسليم كل تقارير الحسابات لمدير القسم لينقلها إلى المدير العام استعداداً لاجتماع مجلس الإدارة... صبت لنفسها فنجان قهوة وجلست تستريح قليلاً... وكانت ترتشفه حين عاد غريغ... وأخذ الملفات من أمامها دون أن يكلمها... ثم سأل قبل أن يخرج :

- من كان ذلك المسترخي الأنيق الذي كان معك ليلة أمس؟

لم تتوقع منه هذا السؤال، ليس في وقت العمل على الأقل... وردت باختصار :

- شخص أوصلني إلى منزلي بكل لطف وذوق... وأنت مدين له بقيمة فاتورة المطعم... فقد دفعها عنك.

نظر إليها بغضب :

- إذا كنت تتصورين أنني سأدفع قيمة عشاءك فأنت مخطئة... كما أنك وجدت بكل سهولة شخصاً يلتقطك... أليس كذلك؟

- هذا غير صحيح؟

التفتا معاً ليشاهدا السيد باتريك دوبارت يقف بالباب، كان قد وصل بهدوء، ويقف خلفهما تماماً... وأكمل :

- ليس من عادتي أن التقط الفتيات الصغيرات... كما أنني في نفس الوقت لا ادعهن يدفعن ثمن عشائهن.

حاول غريغ أن يتملص من ال موقف المربك، فقال بسرعة :

- ليس هذا المكان الصحيح...

- هذا صحيح تماماً... وأنا سعيد لإدراكك هذا.

- من أنت...؟

وتوقف غريغ عن الكلام لظهور السير جيروم مرة أخرى في القسم قائلاً :

- يا صديقي العزيز... لطف منك المجيء... الاجتماع سيبدأ عما قليل... وأود استشارتك في بعض الأمور قبل بدءه. وبما أنك هنا أريد الاستفادة من خبرتك... ومن المؤسف أنك وأخاك العزيز لا تملكان مكتباً هنا... لكن استطيع القول أن أعمالكما تأخذ كل أوقاتكما.

- حقاً... هذا صحيح... وسأكون مسروراً أن أعطيك أية نصيحة استطيع تقديمها.

- عظيم اذن... عزيزة آنسة نيكولز سنكون في قاعة الاجتماع بعد نصف ساعة... هل انهيت تحضير الملفات راودون؟

حسناً تفحصها جيداً وكن جاهزاً بعد نصف ساعة... سأحتاج إليك معي لبعض الشروحات... آنستي العزيزة اطلبي لنا القهوة إلى مكتبي، ارجوكِ.

- حاضر سيدي... كيف تريدان القهوة :

- دون حليب ارجوكِ، وكذلك السيد دوبارت... أليس كذلك باتريك؟

هز الرجل الضخم رأسه وقال بوقار :

- لكن ألن نؤخر الآنسة عن عملها؟

ابتسمت له :

www.elromancia.com

ـ انا؟ لا... أبداً. ستحضر لي لوسي، خادمة القسم، الصينية، وسأحضر القهوة بنفسي.

أدخلت لهما القهوة في المكتب المجاور، وقدمتها، ثم اعتذرت. فالأوراق يجب أن تُجمع الآن من موظفات الطباعة، وتحضّر فوراً في ملفات لتقدم إلى الاجتماع... كما أن روتين العمل في المكتب يجب أن لا يتأخر.

حين عادت إلى مكتبها جمعت كل الأوراق والتقارير، وأرسلتها مع الأذن إلى كل رئيس قسم ما يخصه ليدخله معه إلى قاعة الاجتماع، قبل أن تعيد اهتمامها إلى الأعمال اليومية الباقية. لقد أصبح لديها الآن فرصة تكفي للتفكير بالظهور المفاجيء غير المتوقع للسيد دوبارت... وقطبت تهز رأسها... لا...

لو أن له صلة بالشركة لعرفت بها من أسماء الزبائن الذين تعرفهم جيداً... لكنه مع ذلك يعرف السيد جيروم معرفة شخصية... هل يقيم معه في انكلترا؟ لصفقة عمل أو مؤتمر دراسي؟ لقد بدا لها واثق من نفسه، راسخ القرار وبطريقة هادئة... ثيابه فاخرة أنيقة تدل على الذوق... والمال... ربما هو شخص مهم في وطنه... ألم يقل السير جيروم شيئاً عن شركة خاصة له ولأخيه؟ وتنهدت بعمق من شدة الحيرة والفضول.

ومرّ اليوم... وجرى الاجتماع وانتهى... وتمكنت آنا بيلا أخيراً أن تجلس في مكتبها لتشرب الشاي... وأخذ القسم يتحضر إلى الإقفال... وكانت على وشك أن تبدأ بتحضير نفسها للخروج حين دخل غريغ... عدا عن إيصال بعض التعليمات لها من السير جيروم، لم يكن بينهما كلام... ولم يكن أمامها سوى وقت

قصير لانهاء عملها، فجلست على مكتبها تجمع أوراقها، وتضعها في الأدراج، ثم نظرت إليه متسائلة بعد أن لاحظت أنه يحدق فيها... كان قد ترك باب المكتب وراءه مفتوحاً والغضب بادٍ على محياه.

ـ اسمعي... لا زلت أريد معرفة كيف تمكنت من التقاط ذلك الرجل.

نظرت إليه بهدوء، مع أن قلبها كان يرتجف بما يكفي ليرتجف جسدها معه... واحتقرت نفسها على التمني بأن يبتسم، ويعتذر ويقول أن كل شيء عاد على ما يرام مرة أخرى... وأنه لم يكن يعني كلمة مما قاله...

ـ أنا لم «التقطه» كما تقول. لقد شاهدك تتركني، واعتقد أنه خمّن أن ليس معي مال يكفي لدفع الفاتورة، وهذا صحيح... وكان يجب عليك أن تفكر بهذا... ولست أدري ما كنت سأفعل لولا مساعدته لي.

... غريغ... أيجب أن نتخاصم...

صاح يقاطعها :

ـ نتخاصم؟ أنا لا أتخاصم معك... لدي أعمال أخرى أقوم بها بدل إضاعة وقتي على فتاة «نقاقة» مثلك...

مرة أخرى تدخل السيد دوبارت بصمته وهو واقف عند الباب :

ـ لا استطيع الموافقة معك على هذا الكلام... ولو أن لدي الوقت الكافي لاصرّيت على أن تسحب كلماتك وتبتلعها... لكنك محق بأنك تضيع وقتك سيد... راودون... إنهم يبحثون عنك في الإدارة.

استدار غريغ دون كلمة ليخرج، لكن دوبارت لم يتحرك عن الباب، وقال ببرود :

ـ اعتذار سريع للآنسة؟

وابتسم ابتسامة لا يمكن لآنا أن تصفها بالمشوقة... فاستدار غريغ حانقاً وتمتم بشيء لها، قبل أن يمر بسرعة من الباب... حين ابتعد ساد صمت للحظات، كانت آنا خلالها تكافح لاستعادة هدوءها... وبدا أن رفيقها في المكان سعيد لمجرد الوقوف هناك ينظر إليها... ثم سألها بلطف :

ـ هل انهيت عملك آنسة؟

ـ بعد عشر دقائق تقريباً... سيدي.

ـ إذن... هل لي أن أرجوك أن تشفقي عليّ وتصاحبيني إلى العشاء؟ لندن مكان يحس فيه الغريب بالوحشة.

لم تكن في حالة نفسية تسمح لها بالاهتمام بما قد تفعل أو إلى أي مكان تذهب... وافترضت أن من الخير لها أن تخرج معه بدلاً من قضاء امسيتها في غرفتها في الشقة المشتركة مع فتاتين أخريتين... لكنها كانت فتاة طيبة، ولا تريد استغلاله.

ـ قد تتمتع بنفسك أكثر لو كنت لوحدك... فأنا لست مرافقة جيدة.

هز كتفيه الضخمين، وابتسم :

لسنا مضطرين لأن نتحدث إلا إذا اردنا... على أي حال سيكون هذا أفضل من أن تقضي أمسيتك لوحدك، وربما دون عشاء.

ارتفعت عيناها الجميلتان إلى وجهه :

ـ وكيف عرفت...؟ حسناً... شكراً لك... سأحب أن أرافقك.

ـ عظيم... السابعة والنصف، عند مدخل منزلك.

تنفست صديقتها تيلي وهي تدخل إلى مكتبها لتعطيها أوراقاً انهت طباعتها لتوها :

ـ إنه رائع... قد يكون متزوجاً... فالرجال الرائعون دائماً يتزوجون بسرعة.

ـ لست أدري... كل شيء يسير بسرعة...

أكملت توضيب طاولتها ووقفت لتخرج... كان يوماً مرهقاً لها، وللجميع تقريباً... وشكر للسماء على انتهاءه. مع أنه لم ينته بعد بالنسبة لها... فأمامها الأمسية تمضيها بعد... لكن قد تمر صحبتها للسيد دوبارت بشكل مبهج وسريع... وتنهدت وهي تخرج من الشركة لتستقل الباص إلى منزلها... كانت واثقة جداً أنه رجل رائع... لكنه ليست غريغ... غريغ الذي يجب أن تكرهه وتحتقره... بدلاً من أن تحبه.

* * *

- ٢ -

لن أتزوج!

وقفت آنا بيلا تتفحص ما في خزانتها من ملابس... متسائلة أي نوع من الأماكن سيأخذها دوبارت إليه ثم قررت أن لا تبالغ وارتدت فستاناً من الحرير تحت معطف الصوف الذي دللت نفسها بشراءه منذ أسابيع فقط. كانت فتاة جميلة، حتى مشاعرها البائسة لم تستطع تعتيم جمالها... وما كادت تنتهي من ملابسها حتى كادت تقرر عدم الذهاب... فهي لا تشعر أنها ستكون منصفة له، ستكون الرفيقة المملة، والسيد دوبارت الطف من أن يعامله أحد بسوء. ثم تذكرت أنها لا زالت مدينة له بالمال لعشاء الأمس... غريغ لن يدفعه، لذا فهي مضطرة. وضعت دفتر شيكاتها في حقيبتها، ونزلت إلى الطابق الأرضي.

كان دوبارت يقف قرب الباب الزجاجي وظهره لها. وبدا لها ضخماً... لا بد أنه مضطر لصنع كل شيء يناسب حجمه... وكم سيكلفه هذا...!

استدار حين وصلته، وادركت أنه شاهد انعكاسها على الزجاج، تحيته كانت مبهجة، نظرته ودية، لكن دون أي شيء شخصي فيها. وتمتم وهو يفتح لها الباب :

- دقيقة جداً في مواعيدك.

كان هناك سيارة متوقفة أمام المنزل... روفر صالون زيتية اللون، فرشها من الجلد الرمادي الفاتح... ادخلها إليها ثم جلس قربها، وانطلق بالسيارة.

- أتعرفين المطعم الفرنسي؟ كنت آمل أن نخرج خارج المدينة إلى مكان هادىء... لكنك متعبة... كان يومك مرهقاً... أليس كذلك...؟ تحبين الطعام الفرنسي؟

تابع حديثه بصوت عميق رنان، ولم يكن أمامها سوى أن تهز رأسها رداً عليه من فترة إلى أخرى... وأحست بنفسها ترتاح... لقد كانت محقة... فهو رفيق رائع متطلب... ووجدت نفسها تتساءل ما إذا كانت ملابسها تلائم هذه المناسبة، فهي لم تتعب نفسها في انتقاء ما ترتدي، ولقد قال أنها متعبة، وهذا يعني أنها تبدو غير أنيقة. لكنه سرعان ما أوضح لها قائلاً :

- تبدين رائعة... فأنت على أي حال فتاة جميلة، حتى وأنت متعبة.

- شكراً لك... كان يومي كثير المشاغل.

تباحثا فيما جرى ذلك اليوم بسهولة دون أن يخوضا بأي حديث جدي... إلى أن أوقف السيارة وقادها فوق الرصيف إلى المطعم. ويبدو أنه معروف هناك، فقد حياهما السقاة بالترحاب... وجلسا جنباً إلى جنب يحتسيان شرابهما قبل

العشاء، يتحدثان حول لا شيء محدد ثم قررا ما سيطلبان للعشاء، حساء بالثوم، لحم مطبوخ على الطريقة الفرنسية لها، وكبد أوز مع خضار له...

وجلست باسترخاء أكثر مما أحست به منذ ليلة الأمس.

وهي تتحضر تلك الليلة للنوم، وجدت نفسها غير قادرة على تذكر عما تحدثا... فهما لم يستعجلا أبداً في تناول طعامهما... وتوقفت عن تمشيط شعرها لتمعن التفكير، ثم قلقت لأن ذاكرتها خانتها... وهي على وشك الاغفاء أدركت أنها لم تفكر تلك الليلة بغريغ اطلاقاً. وتذكرت كذلك أن دوبارت اقترح أن يدعوها إلى المسرح، وقبلت دعوته، لمجرد تفكيرها أن لو عرف غريغ بالأمر سيشعر بالغيرة... لكنها تذكرت كذلك نظرة التفهم لما تفكر به التي رمقها بها دوبارت حين قبلت.

كانت في منتصف تناولها للفطار في الصباح التالي حين جمدت يدها في منتصف الطريق إلى فمها... كيف نسيت أن تدفع المال الذي يدين به غريغ؟

وقالت لها صديقتها :

ـ آنا... ما بك؟ تبدين وكأنك تذكرت شيئاً مخيفاً.

ضحكت بخفة :

ـ بل أسوأ من هذا.

لكنها لم تكن راغبة في الشرح لصديقتها التي استنتجت أن شيئاً حدث بينها وبين غريغ.

لا بد أنها ستقابل دوبارت اليوم وفي الأيام التالية... وجلست إلى مكتبها تهتم بعملها اليومي... لكنه لم يظهر، وحضر

السير جيروم يقوم بجولته المعتادة على أقسام الشركة قبل الدخول إلى مكتبه، وكان غريغ معه يتحدثان... انهت آنا عملها في منتصف النهار وخرجت إلى البيت في إجازة، امضت بقية بعد الظهر تغسل شعرها وتصففه... ثم كتبت بعض الرسائل وخرجت تتمشى... كان الأصح لها لو تأخذ الباص إلى الحديقة العامة لتتسلى، أو أن تذهب إلى مقهى تتناول فيه الشاي، لكنها لم تكن ترغب في كل هذا. غريغ لم يلق بالاً لها طوال اليوم، وآلمها فعلاً أنه أنهى علاقته بها، وأنه كان يعني ما قاله من أنه لن يضيع وقته عليها، ودعاها «بالنقاقة» كذلك.

سارت حتى ارهقت نفسها، لتعود إلى المنزل وقت العشاء... حيث حضرته صديقتها في الشقة ولرؤية وجهها الكالح الكئيب تحدثتا في كل شيء ما عدا عنها.

قالت إحداهن :

ـ ذلك الفاتن رحل... كان محط أنظار الفتيات في الشركة... ولا عجب في هذا... جدير به أن يكون نجم سينما.

وسألتها ثيلي :

ـ أتعني ذلك العملاق الذي كان يتجول في الشركة مع السير جيروم؟ إنه متواضع بالرغم من حجمه... لا يتكلم كلمة زائدة عن اللزوم... سمعت أنه صاحب شركة مقاولات هندسية كبيرة في فرنسا... والسير جيروم مهتم جداً بمشاركته في تنفيذ بعض الأعمال العالمية... ولهذا دعاه إلى هنا. لكنه سيعود...

علقت ثيكي :

- تعرفين الكثير عنه.

والتفتت إلى آنا :

- أنت من يجب معرفة الكثير عنه آنا... ولا بد أن غريغ يعرف كل شيء...

صمتت لتتمتم آسفة :

- أوه... يا إلهي! أنا آسفة... سأحضر الحلوى.

ردت آنا ووجها شاحب :

- لا أعرف شيئاً عنه.

وهذا أمر صحيح. فهو لم يخبرها شيء عن نفسه... وأضافت :

- مع أنه بدا لي طيباً.

تشاركت الفتاتان الأخريتان في حديث متشابك لتغيير الموضوع، فقد كانت هناك اشاعات كثيرة بين موظفي الشركة حول آنا وغريغ... صحيح أن أحداً لم يستطع أن يعرف ماذا جرى، إلا أن خصامهما كان أكيداً، وتوضح للجميع أن علاقتهما العاطفية انتهت...

نظرا لوجه آنا الشاحب، والجو التعيس الذي يحيط بها.

بعد ظهر يوم الجمعة، توجهت آنا إلى قريتها لقضاء نهاية الأسبوع مع أهلها، مستخدمة سيارة أبيها الأوستن البيضاء، سعيدة لتنفض عنها متاعب العمل، والذكريات التعيسة لفترة ولو قصيرة. ما أن خرجت من المدينة وضواحيها، حتى خففت مناظر الريف من توتر أعصابها... فتركت عن قصد الطريق الرئيسية واستمرت في طريقها عبر طرقات ضيقة ريفية... صحيح أنها أبعد بكثير

لكن الأمسية كانت جميلة، ومع أنها اتصلت بجدتها لتخبرها أنها قادمة إلا أنها لم تحدد موعداً... وصلت القرية حوالى السابعة، ودخلت الطريق الريفية الموصلة إلى منزل أهلها المسمى «ليتل هال» أي القصر الصغير تفكر بكل شيء ما عدا غريغ... لقد كانت حمقاء في أن لا تلاحظ طموحه، وأن ليس لديها أي شيء تقدمه له سوى وجه جميل وجسد رائع وخبرة سكرتيرة كفوءة... بينما هو يريد المال، فبدون المال سيمضي وقتاً مضاعفاً في بناء مستقبل مستقل لنفسه.

لكن، لم يكن على وجهها أي أثر للتفكير المقلق حين أوقفت سيارتها خارج المنزل الصغير المشابه للقصر... إنه مكان جميل تحيط به حديقة جميلة، وممر من الآجرّ يصل إلى بابه الخشبي السميك القديم الطراز... شرفته كانت أنيقة، والدهان على نوافذه نظيف لا تشوبه شائبة تحيط بها مساكب الزهور التي قد ترضي ذوق أي جنائني محترف.

ضربت آنا ضربات منتظمة ذات نغم محدد على الباب ثم فتحته تنادي وهي تدخل، فأقبلت جدتها من مؤخرة المنزل تستقبلها... امرأة عجوز مستقيمة الجسم في أواخر الستين من عمرها.

قبلت السيدة نيكولز حفيدتها بسعادة، كانتا متماثلتان بالطول، وحدقت عينا العجوز المماثلتين كذلك لعيني آنا البنيتين الواسعتين ولاحظت الاضطراب في عمقهما... لكنها لم تبدي أية ملاحظة حول وجهها الشاحب. بل سألتها عن رحلتها وقالت أن هناك ستيك وكبد للعشاء، وأبدت أملها أن تكون آنا جائعة بما يكفي لتتمتع به.

ما أن انتهى العشاء الذي قدمته مدبرة المنزل المخلصة السيدة فورسيل، حتى جلست الجدة مع حفيدتها حول مدفأة حطب قديمة قدم المنزل نفسه، في غرفة الجلوس الرثة، وسألت السيدة نيكولز :

ـ أكنت مشغولة؟ تبدين مرهقة... كم أتمنى أن تتركي عملك هذا وتجدين وظيفة أخرى قريبة من هنا، حيث العمل أخف وطأة.

ـ لكنني اتمتع بعملي الحالي جدتي... حتى حين اتعب... لكن لو أحببت أن أحصل على عمل في الجوار فسأفعل.

ازداد عبوس الجدة :

ـ بكل تأكيد لن تفعلي هذا يا عزيزتي... لن أحلم أبداً في إفساد حلم مستقبلك بأنانيتي... ألا تنوين الزواج؟ لا بد أنك تقابلين الكثير من الرجال و...

ـ أجل جدتي... أقابل الكثير... لكن معظمهم متزوج.

ـ ومن ليس متزوجاً؟

ـ حسناً... أنا أخرج معهم عادة، لكن ما من أحد خاص...

ليس الآن على أي حال.

هزت الجدة رأسها سعيدة لأن تخمينها كان في محله :

ـ يبقى الكثير من السمك الجيد في البحر. هل يؤلمك هذا عزيزتي؟

ـ أجل جدتي... أترين... ظننته سيطلب الزواج مني..

ـ وبالطبع أنت مضطرة لرؤيته كل يوم؟

ـ صحيح.

ـ هذا مزعج لك... ألا يمكنك أخذ إجازة؟

ـ واهرب من مواجهة الواقع؟ لا استطيع فعل هذا جدتي... أتوقع أن يزول التأثير السيء بعد يوم أو يومين.

فتحت الجدة فمها لتقول شيئاً ثم صمتت... بعد قليل انطلقت تتحدث عن الاجتماع الأخير للجنة المرأة في المنطقة، والتي ترأسه بنفسها... واستمر هذا الحديث حتى موعد النوم.

عادت إلى المدينة مساء الأحد، تحس بالأسف لترك هدوء المنزل الصغير الذي أصبح منزلها منذ وفاة والديها...

طوال يوم الاثنين لم يظهر غريغ في المكتب... لكنها في المساء، وهي تغادر المكتب شاهدته برفقه لورنا روبرت موظفة شؤون الموظفين في الشركة، إنها ابنة لحام شهير في لندن، ومعروف بثراءه، لا بد أنها تناسبه أكثر... التفت إليها وكأنه بالكاد يتذكر اسمها :

ـ مساء الخير آنسة نيكولز.

ردت متصلبة ببرود :

ـ مرحباً.

كانت على وشك متابعة طريقها حين توقفت لورنا واضطر غريغ للتوقف بدوره، وقالت متشوقة :

ـ نحن ذاهبان إلى مسرح «البالاديوم» هناك مسرحية يتحدث الجميع عنها.

أصغت آنا إلى صوت نفسها البارد المستساغ وتعجبت له :

ـ سمعت أنها ممتازة...

كانت ستتابع كلامها لولا أن ظهر السيد دوبارت من الحديقة

www.elromancia.com

المحيطة بالمبنى، وانضم إليهم بصمت، لكنه تكلم قبل أن تكمل :

- ها أنت آنا بيلا... كنت قد بدأت أعتقد أن سيارتك الصغيرة قد تعطلت... أيمكنك تغيير ملابسك بعدعشرين دقيقة؟ لقد حجزت طاولة للعشاء عند الثامنة والنصف.

كان قد اندس بينها وبين الآخرين، بحيث لم يشاهدا وجهها المصدوم وفمها المفتوح عجباً.

- لكنني...

- أتحتاجين إلى وقت أطول؟ اعطيك خمس دقائق بعد. سأنتظرك في مدخل شقتك.

استدار دون كلمة أخرى، وركض تقريباً إلى المدخل الرئيسي.

وصلت شقتها لتجد أن شريكتيها لم تصلا بعد، فدخلت غرفتها تجلس على السرير... بالطبع لم يعنِ السيد دوبارت كلمة مما قاله. لكنه كان ينقذها من موقف مزعج... هذا كل شيء... يجب أن تستحم وتدخل فراشها باكراً شاكرة له لطفه حين تراه مجدداً.

رن جرس الهاتف وهي ترتدي ثياب النوم، فخرجت إلى غرفة الجلوس لترد... وسمعت صوت دوبارت العميق الهادىء يسألها إذا كانت جاهزة. ويطلب أن ترتدي ثياباً جميلة، لأنه سيأخذها إلى مطعم فاخر.

- اوه... ظننتك تساعدني فقط، أو شيء من هذا... أكنت جاداً في دعوتك لي للعشاء؟

ضحكته كانت مطمئنة.

- أوه... صحيح، كنت أساعدك، لكنني بكل تأكيد كنت

أنوي دعوتك للعشاء، الليلة وإلى قدر ما استطيع من ليال قادمة.

ابعدت السماعة عن اذنها تنظر إليها بذهول، تتساءل عما إذا كانت تسمع جيداً. بعد لحظات قالت :

- شكراً... سأحب الخروج معك الليلة، لن أتأخر.

كان ينتظرها كما المرة الماضية، وتنهدت ارتياحاً دون أن تلاحظ ما تفعل. وعلق على جمالها وهو يفتح لها الباب ثم قادها إلى سيارة الروفر، وخلال الرحلة القصيرة أبقى الحديث من جانبه لوحده كي يحول بينها وبين قول شيء عن لقائها بغريغ. وتابع هكذا خلال العشاء المكوّن من السمك المدخّن، والاسكالوب مع حلوى غنية بالكريما، ثم شربا القهوة. وكانت تصب الفنجان الثاني حين قال فجأة :

- إنه فستان جميل... أتحبين الرقص؟

ترددت في الإجابة بنعم، حتى أنه تابع يقول :

- يجب أن نرقص في أمسية قادمة، أما الآن هل تأتين إلى المسرح معي... هناك مسرحية أريد رؤيتها، وأظنها ستعجبك.

لم ترد برهة، ثم طرحت سؤالاً :

- لماذا أنت لطيف معي هكذا؟ أعني... تدعوني إلى العشاء... مرتين خلال أيام... ثم تتظاهر أننا سنقضي السهرة معاً...

- حسناً... نحن نقضيها معاً... أليس كذلك؟ وأنا لا أتظاهر باللطف حين أقول أنني أريد رؤية مسرحية جيدة... وإذا كنت تريدين استعادة راودون... عليك أن تكوني جريئة.

- لا أريد استعادته... ولا أرى أن الأمر يعنيك سيد دوبارت.

ـ أنت طبعاً محقة... واعتذر... كنت أتوقع أن تحبي الذهاب إلى المسرح.

وصل الساقي ليعطيه الفاتورة ليوقعها... فصاحت بحدة :

ـ أوه... لقد نسيت تماماً... لا زلت مدينة لك بقيمة فاتورة...

أوقفها عن الكلام بنظرة نفور، وقال :

ـ اسمحي لي أن أسوي الأمر هذا مع راودون.

لم يبق أمامها سوى الوقوف للخروج، وتشاركت معه بحديث خفيف طوال الطريق إلى منزلها، حيث شكرته بصوت مهذب... وأصغى لها ورأسه مائل إلى جانبه... حين انتهت قال :

ـ هذه ليست أمسية ناجحة... لكنها ستتكرر.

هذه الملاحظة ارسلتها مندوخة رأساً إلى الفراش... لن يكون هناك أمسيات أخرى معه. ثم تذكرت أنها وعدته بالذهاب إلى المسرح في ليلة قادمة... فتأوهت... حسناً... هذه المرة فقط... ثم لا شيء بعدها.

من هذا المنظار، أصيبت بخيبة أمل في اليوم التالي حين وجدت على مكتبها رسالة منه تخبرها باضطراره السفر إلى فرنسا لأمر طارىء، وأنه سيكون شاكراً أن يؤخر موعدهما... أعادتها إلى المغلف وتركتها مفتوحة على طاولتها... حين دخل غريغ المكتب، لاحظت أنه ينظر إلى الرسالة فالتقطتها ووضعتها في جيبها، وأحست بالرضى حين لحق السير جيروم بغريغ إلى الغرفة وسأله غريغ عن السيد دوبارت.

ـ لقد عاد إلى فرنسا... وصله اتصال طارىء من أخيه، لكنه سيعود، أريد أن أنهي صفقة انشاءات عالمية معه.

وأخذ يسهب في شروحات تقنية، وصبّت آنا له كوب قهوة وهي تصغي إليه بإذن واحدة، بينما تفكر فيما إذا كان السيد دوبارت سيطلب منها الخروج معه ثانية. كان غريغ يجلس قربها، ولا تزال متأثرة به، لكن كبريائها منعها من إظهار أية مشاعر له... ورافقت الرجلين إلى الخارج، ثم عادت تكمل عملها الذي قاطعاه.

مساء السبت بقيت ساعة اضافية في العمل... ومرّ يوم الأحد بهدوء... وكذلك يوم الاثنين، حيث ذهبت مساءً إلى المنزل مصممة أن تلتقط خيوط حياتها من جديد، بعد أن تنسى كل شيء عن غريغ... وإلى الأبد. ستقدم استقالتها، تكمل شهر الانذار كما يفعل الجميع، ثم تفتش عن وظيفة جديدة. قد يبدو هذا وكأنها تهرب من الواقع التعيس الذي تواجهه، لكن هذه هي الحقيقة بطريقة ما... واصدقائها سيفهمون وضعها، فهذه أفضل طريقة أمامها... بل إنها في الواقع الطريقة الوحيدة.

زارت جدتها في نهاية الأسبوع كعادتها، وأخبرتها عن خطتها الغامضة... ووافقت معها العجوز دون طرح اسئلة محرجة، ثم انطلقت تقترح اقتراحات قد تساعد حفيدتها :

ـ استريحي من متاعب لندن... لماذا لا تجربي العمل في مقاطعة أخرى، ولو كانت بعيدة وستبعدك أكثر عن المنزل... ستجدين هناك أجواء جديدة ووجوه مختلفة، وتكون لك بداية أخرى.

ربما هي الراحة النفسية التي اعطتها لها جدتها هي التي ساعدتها على النوم بارتياح تلك الليلة لأول مرة منذ ليالٍ بعيدة.

استفاقت صباحاً على يوم جميل وهواء عليل وشمس مشرقة، صحيح أنها ليست شديدة الحرارة، إلا أنها تعد بيوم رائع. بقيت مستلقية في الفراش لفترة ثم تذكرت كيف كانت السيدة فورسيل تتذمر حول تنظيف المنزل استعداداً لموسم الربيع... وهذا شيء تصرّ على القيام به كل سنة. خرجت من السرير لترتدي بنطلوناً وكنزة، ونزلت إلى الطابق الأسفل... ستائر غرفة الجلوس يجب أن تُنزل وتنظّف جيداً.

صنعت الشاي وشربته أمام باب المطبخ المفتوح، ووضعت للقط حليبه الصباحي. ثم بدأت بإنزال الستائر واخراجها إلى الحديقة. حيث علقتها على حبال الغسيل في المؤخرة، ثم دخلت غرفة الطعام وفعلت نفس الشيء... ستصنع الآن مزيداً من الشاي مع بعض الطعام وتأخذه للعجوزتين في الطابق الأعلى، قبل أن تتناول بدورها الفطار.

ـ هذا بالضبط ما أحب أن أراه!

أحست أنفاسها تتوقف، والدم يجمد في عروقها، قلبها توقف، ضربة أو ضربتين عن الخفقان... إنه صوت دويارت من خلفها، وأكمل :

ـ شابة قوية تعمل في المطبخ.

التفتت إليه، دهشتها تغلب السعادة التي أحست بها لرؤيته. فردت عليه وفمها مليء بالطعام :

ـ لكنني لا أظنك تهتم أبداً بدخول مطبخ، أكان فيه امرأة شابة أم لا...

ـ اوه... لكنني أفعل هذا... لديّ مدبرة منزل تخبز لي الكعك الانكليزي الشهير، وانا مغرم بأكله كثيراً. هل لي أن أدخل؟

حين هزت رأسها، مد ساقه الطويل فوق حافة النافذة وقفز بسهولة إلى الداخل... صحيح أنه ليس صغير السن، لكنه مميز أنيق الملابس. ومد يده إليها، لتضع له فيها حفنة من الكعك الصغير وقالت :

ـ هل تقوم بزياراتك باكراً عادة؟

ـ لقد وصلت في طائرة الساعة السادسة، والساعة الآن تكاد تصل الثامنة هل انهيت فطارك؟

ـ ليس بعد، أتحب أن تتناوله معي؟ ستنزل جدتي والسيدة فورسيل بعد قليل... أنا بانتظارهما... لكن كيف عرفت أنني هنا، أم أنك كنت ماراً بقريتنا صدفة؟

ـ اوه... شخص أو آخر أخبرني أين تقيمين... وقررت أنني لو زرتك وقت الفطار...

ضحكت، مع احساسها بالانزعاج لأنه لم يقل أنه جاء خصيصاً ليراها... فقال :

ـ لا تحزني هكذا... أنا لست مثل راودون، لكنني أوفّر لك الصحبة الجيدة.

ـ كيف عرفت أنني أفكر هكذا؟

ـ بالمنطق... كم أن هذه الحديقة رائعة، لماذا كل الستائر معلقة على الحبال وليس على النوافذ؟

شرحت له السبب، ثم وصلت السيدة فورسيل، فقدمتهما. وسألت السيدة إذا كانا يحبان البيض مع اللحم، ثم أمرتهما بلطف أن يخرجا من المطبخ. وقال دوبارت وهما يدخلان غرفة الجلوس :

- المشكلة مع امثالها من مدبرات المنازل، انهن يعرفنك منذ الصغر، ولا يسمحن لك بأن تكبري... اعرف هذا... فلديّ واحدة مثلها في منزلي.

- التي تخبز لك الكعك؟

- أجل... هل ستذهبي إلى العمل غداً؟

- أجل... جئت بسيارتي.

- حسناً... سآخذك معي... وبإمكانك الرجوع إلى هنا بالقطار.

- أجل... استطيع هذا. لكنني لست ذاهبة قبل المساء.

- آه... أهذه دعوة لي لقضاء يومي هنا؟ سأتمتع بهذا... ثم يمكن لي أن أعلّق لك الستائر.

كانت تحس بالسعادة، وهما في طريق العودة، لليوم الرائع الذي قضاه الجميع... جدتها أحبته، وامضت وقتاً لا بأس به في الحديث معه، بينما كانت آنا والسيدة فورسيل تحضران الغداء. بالنسبة لمدبرة المنزل كان نجاحه معها فورياً... وهما يغادران دهشت لصدق جدتها في الإصرار على أن يزورهم مرة أخرى... وموافقته على الدعوة. وقالت له وهو يدفع بالسيارة قدماً :

- كان لك يوم هادىء.

- أحب الهدوء... ما الذي جعلك تظنين العكس؟

- لا شيء... لكنك تعيش في لندن، وباريس، وتوقعت أن تكون معتاداً على الخروج والضجيج.

- وأعيش كذلك في «أورليان» المدينة القديمة ذات الطابع الريفي، ولا شيء أحبه أكثر من منزلي هناك على ضفاف نهر «اللوار»... وأنت؟ جدتك قالت أنك تفكرين بترك عملك. إنها فكرة جيدة، لكن، بالطبع، لا يمكن أن تتركي عملك سوى لسبب واحد.

استدارت إليه بحدة :

- ماذا تعني؟

- كوني ذكية يا فتاتي العزيزة... سيظن غريغ أنك تهربين منه. فإذا كنت تريدين ترك العمل، فيجب أن يكون ذلك بسبب الزواج.

اجلست آنا بيلا ظهرها فوقعت حقيبة يدها في ارض السيارة وتناثرت محتوياتها، فصاحت بائسة :

- انظر ما جعلتني أفعل!

- سنلتقط كل شيء فيما بعد... هل سمعت جيداً ما قلته لك آنا؟

- أجل... لكن كيف سيتم لي هذا، وأنا لا أعرف أحداً... ثم انني لا أريد الزواج... تعرف ما أعني... ثم لا أعرف لماذا أحدثك بهذا الأمر؟

رد عليها باقتضاب :

- سنرى.

وأكمل الحديث عن أمور أخرى، وعرفت منزعجة محاولة التظاهر أنها لا تسمعه،وبأنه لن يستمع إليها لو أرادت قول شيء

www.elromancia.com

حول الموضوع. ودعته بتحية مساء حادة، لكنها جمدت دون حراك حين انحنى فجأة يقبل رأسها رداً على تحية المساء. فسألته حين استعادت أنفاسها :

- لماذا فعلت هذا؟

- لأجل تذكرك لغريغ... فلا شيء يشعل المخيلة مثل المنافسة.

- شكراً لك.

غريغ عادة كان يقبلها لأنه يرغب في هذا... لكن دوبارت يفعل لمجرد الضرورة... ولم تكن واثقة إذا كانت تمانع أم لا.

تمنت له ليلة سعيدة مرة أخرى وصعدت إلى شقتها تتنهد. كلما أسرعت في ترك عملها هنا، والابتعاد عن غريغ كان هذا أفضل لها... وقالت لنفسها بصوت مرتفع :

- لكنني لن أتزوج!

* * *

- ٣ -

لن أغير رأيي مرة أخرى!

كانت لا تزال مصممة على رأيها حين استفاقت في اليوم التالي... تنوي أن تقول رأيها بصراحة للسيد دوبارت حين تسنح لها الفرصة. صحيح أنه زار المكتب زيارة سريعة إلا أنه كان يبدو رسمياً، ما عدا «صباح الخير» وتقديم الملف الذي طلب الاطلاع عليه، ثم مرافقته إلى باب المكتب و «مع السلامة سيدي» لم تستطع آنا أن تقول شيئاً.

لكن اليوم كله مرّ مع سلسلة من المشاكل الصغيرة : ملفات ضائعة ما بين السكرتاريا وقسم الطباعة... سوء تفاهم وتأخير عمل... حين انتهى الدوام أخيراً، أحست آنا بالسعادة لانتهاء اليوم. وما أن تمددت في الفراش، حتى تذكرت أنها كانت تنوي رؤية رئيس القسم بشأن تركها للعمل... وقررت أن تفعل هذا في الغد وهي تغمض عينيها. لكن قبل أن تغفو تذكرت بوضوح كم كانت رفقة دوبارت لذيذة في منزل جدتها، وهو يجلس قبالة

www.elromancia.com

العجوز... يلتهم اللحم الذي قدمته السيدة فورسيل، ثم الكبد المقلي مع الحامض والأعشاب والثوم.

مر الصباح التالي بعكس ما كان اليوم الذي سبقه، كل شيء سار بسهولة وسويت كل الأمور. وجلست في مكتبها تتابع عملها الروتيني... تملأ الملفات، ترتبها ترسل المراسلات الداخلية مع « الآذن » وتقوم بالمكالمات المطلوبة في العمل... كانت مستغرقة في عملها حين انفتح الباب، فقالت دون أن ترفع رأسها :

- ثيلي... أريد الملف الذي اعطيتك إياه بالأمس لاعادة الطباعة.

حين لم يرد عليها أحد، رفعت رأسها... وقال دوبارت :

- صباح الخير... لقد أكدت لي ثيلي أنك لست مشغولة كثيراً... وأود الحديث معك قليلاً.

وضعت قلمها من يدها وسألت بعجب :

- الآن؟

- الآن... وحول غريغ راودون.

رفع يده الضخمة يسكتها كي لا تعترض. وتابع :

- إنه الرجل الوحيد الذي أحببته.

احمر وجهها :

- أجل.

- وبالطبع لم تكون لكما علاقة من نوع ما؟

شهقت وازد احمرارها :

- بكل تأكيد لا!

- سامحيني، لست أدري لماذا سألت هذا السؤال... لم يكن له ضرورة اطلاقاً. هل يمكن أن تفكري بالزواج بي آنا بيلا؟

سخطها ودهشتها انقلبا إلى سرور... وسألت ببطء :

- أفكر بماذا؟

- تفكرين بالزواج مني.

كان يقول هذا بسهولة وكأنه يطلب منها أن تعطيه ملفاً... وأعادت ترتيب كل شيء على طاولتها، محاولة أن تفكر بما تقول... حين لم يخطر ببالها شيء. أعادت ترتيب ما رتبته مرة أخرى بشكل آخر. فاقترح عليها دون تسرع :

- دعينا نراجع الموقف بهدوء، تريدين الهرب من الوضع الذي لم تعودي تتحملينه. لكن، ليس لديك الشجاعة الكافية لهذا.

حاولت الاعتراض ترفع رأسها بكبرياء لكنه اصمتها مجدداً :

- لا... لا تقاطعيني... أنت ترغبين في طريقة للخلاص... أليس كذلك؟ فبقاؤك هنا أصبح مستحيلاً... لكن كبريائك تمنعك، ويجب أن لا تمس أبداً. ويجب أن يكون سبب تركك للعمل لا علاقة له بمسألة الهرب. وأنا أعرض عليك وسيلة توصلك إلى هدفك... اسمحي لي أن أنهي كلامي. أنا بحاجة إلى زوجة، والصحيح أكثر، أن منزلي بحاجة إلى سيدة له. احتاج إلى من تستقبل ضيوفي، وتؤم الأمان لأولادي... أوه... أجل... كنت متزوجاً، وتطلقنا منذ عشر سنوات باتفاق مشترك. وهي الآن متزوجة من ثري أميركي ولا اهتمام لها بأولادها، وهما توأم : صبي اسمه سيمون وفتاة اسمها تيريز. وهما الآن في الحادية عشرة من العمر.

www.elmoemonecia.com

سألته مقطوعة الأنفاس :

ـ تركتهما وهما في السنة الأولى من عمرها؟ لا يمكن لها...

ـ لكنها فعلت... أنهما بحاجة إلى أم... آنا بيلا... وبشكل يائس لكنني يجب أن أوضح لك بما لا يقبل الشك... إنني لست بحاجة إلى زوجة.

ـ بإمكانك الحصول على مدبرة منزل... أو مربية.

ـ لديّ الاثنتين. مدبرة منزلي التي ذكرتها لك... والمربية التي رعتهما منذ كانا طفلين... إنها تحبهما كثيراً وتفسدهما تدليلاً، لدرجة أنها لم تعد تستطيع السيطرة عليهما. إنهما بحاجة إلى السلطة والتفهم، وشخص يحبانه ويثقان به.

ردت بحدة :

ـ ولماذا لا يكون هذا الشخص أنت؟

ـ أنا لست امرأة... ولا تخطئي أبداً في حبي لهما، لكن هناك أمور أخرى كثيرة لا استطيع أن أفعلها أو أقولها، وتستطيعها امرأة... أم.

فتحت فمها لترد، لكن الباب انفتح ودخلت ثيلي، ثم قالت بارتباك :

ـ سأحضر لكما القهوة.

وتراجعت... فاسند دوبارت ظهره إلى الباب وقال :

ـ سأترك لك فرصة التفكير... ما من شروط مرتبطة مع عرضي يا عزيزتي... فكما قلت... لست بحاجة إلى زوجة. فقد اكتفيت من حياتي، وأظن هذا يناسبك. وسأتمتع بصحبتك، وسأكون فخوراً أن تشاركني حياتي...

صاحت :

ـ لكن الأمر غريب جداً...!

ـ أجل... لكنه بكل تأكيد أفضل من البقاء هنا إلى الأبد... قلبك يتآكل في وقت تتظاهرين فيه بعدم الاكتراث، تتمزقين إرباً كلما التقيت راودون. وأنت تقالبينه عشرات المرات يومياً... أليس كذلك؟

لم ينتظر ردها، بل خرج مقفلاً الباب وراءه بهدوء. فجلست مسمّرة، تحدق بيديها المكتفتين. كانت لا تزال تحدق فيهما حين دخلت ثيلي ثانية تحمل القهوة.

ـ تبدين وكأن شخصاً ضربك على رأسك بمطرقة... أبك شيء؟ أهو العمل؟

ـ لا... كل شيء على ما يرام، لا شيء له علاقة بالعمل.

أكملت آنا يومها المشغول، ترهقها الفكرة التي تركها لها دوبارت لتفكر بها... كم سيمضي من وقت قبل أن يعود ليعرف ردها؟ أيظن أن هذا أمر يمكن لها أن تقرره في ساعة أو ساعتين؟ واستمر تفكيرها بالأمر إلى جزء كبير من الليل، لتغفو أخيراً، وقد قررت أنه إما مجنون أو أنه يتلاعب بها... وهي تغمض عينيها كانت تعي تماماً أن أياً من هذين الاحتمالين عارٍ عن الصحة.

بدا لها أن فكرة السيد دوبارت عن تركها تفكر، لم يكن لها وقت محدد، فهي لم تعد تراه لما تبقى من الأسبوع، حيث ذهبت في نهايته إلى منزل جدتها الريفي لقضاء عطلة الأسبوع، لكن بمزاج هادىء متوتر، حتى أن السيدة فورسيل أجبرتها على مساعدتها في صنع المربى المنزلي. أما بالنسبة لجدتها، فقد انتظرت حفيدتها بصبر

لتقص عليها ما يجول في تفكيرها ويسبب بتغيير طباعها.

عادت آنا من التسوق في القرية لتجد أن دوبارت قد اتصل هاتفياً ليقول أنه قادم بعد ظهر اليوم التالي ليعود بها في سيارته... فلم تعد تستطيع ضبط نفسها فرمت سلة المشتريات على طاولة المطبخ، وركضت تبحث عن جدتها، لتجدها جالسة في الشرفة الخلفية تحيك، لكنها وضعت ما تفعل جانباً وانضمت آنا إليها فقالت :

- نعم عزيزتي!

- جدتي... أريد التحدث إليك.

- أجل عزيزتي... كنت أنتظر... هل الأمر حول السيد دوبارت؟

- كيف عرفت؟ لم أقل شيئاً...

- بالضبط... لم تقولي شيئاً... هيا آنا، معك انتباهي كله.

سمعتها جدتها دون مقاطعة حين انتهت قالت لها :

- آسفة عزيزتي... أيعجبك السيد دوبارت؟

اطرقت آنا برأسها إلى الأرض :

- أجل.

- وهل أنت واثقة من اعماق قلبك أن هذا... غريغ... لا يحبك؟

- أوه... أجل جدتي... أنا واثقة.

- عليك اتخاذ القرار بنفسك، تعرفين هذا؟ سيتوقع ردك في الغد.

- ربما... لكن بما أنه قال أنه سيترك لي الوقت لأفكر، لماذا

يتوقع الرد متى يشاء... فطلبه علي أي حال، يبدو صفقة عمل.

صمتت الجدة تحدق بها مفكرة، ثم سألت :

- حسناً عزيزتي... إنه كذلك... صحيح؟ وهو زواج سيفيدكما معاً. والصحبة في الزواج أمر مهم، وكذلك الاحترام والاعجاب المتبادل. ومن السهل أن تحبي شخصاً دون احترامه، حتى وأنت تكرهينه... الحب قد يتدمر بالكامل ولا يترك شيئاً وراءه، لكن الاعجاب والاحترام يمكن أن ينقلبا إلى عاطفة، وربما إلى حب.

- تريديني أن أتزوج السيد دوبارت.

- قلت لك حبيبتي، هذا قرار لك وحدك... لا تقولي شيئاً الآن يا طفلتي... كم عمره... على فكرة؟

- لست أدري... لكن إذا كان ولداه في الحادية عشرة فلا بد أن يكون في أواخر الثلاثين... ويبدو أكبر من هذا.

- وأنت في السابعة والعشرين.

هزت رأسها :

- وأكبر في السن...

- لا تدعي هذا يدفعك إلى الزواج.

- اعدك بهذا... اذا قررت الزواج منه فبسبب غريغ... وسأنساه مع الوقت... اليس كذلك؟ أهذا انصاف لدوبارت؟

- انصاف كامل، فهو يعرف كل شيء.

كانت تنظف صحون الغداء في اليوم التالي حين سد جسده الضخم باب المطبخ.

- مرحباً... السيدة نيكولز قالت أنني سأجدك هنا...

- مرحباً.

وسألته السيدة فورسيل إذا ما كان قد تناول غداءه، ولدى إجابته بنعم وشكراً بسرعة، خمنت آنا أنه لم يتناوله بعد. فالساعة لم تتجاوز بعد الواحدة والنصف. فسألته :

- هل أنت قادم من لندن مباشرة؟

- أجل... كنت في اجتماع خاص مع السير جيروم في مكاتب الشركة وأخشى أن نكون قد ملأنا مكتبك بالأوراق التي تحتاج إلى طباعة وترتيب.

- إذن لم تتناول غداءك؟

- لا... بل اردت رؤيتك آنا بيلا.

احمر وجهها قليلاً :

- أيكفيك بضع سندويشات مع القهوة؟ أم تفضل العصير؟

ابتسم.

- العصير ارجوك... وسأحب السندويشات.

قالت السيدة فورسيل باهتمام :

- احضري العصير آنا... واخرجي وإياه إلى الحديقة، سألحق بكما بطعام لذيذ.

أخذته آنا إلى الحديقة حيث كانت السيدة نيكولز تنتظر... فنادتهما :

- تعاليا واجلسا هنا... إنه يوم جميل... ويجب أن تعذرا عجوزاً مثلي للتكاسل في الشمس.

اخرجت السيدة فورسيل صينة محملة بالسندويشات مع قطعة حلوى لتضعها على طاولة إلى جانب دوبارت. واستمر الحديث بخفة وهو يأكل. أخيراً تراجع مكتفياً :

- أنت طباخة رائعة سيدة فورسيل.

ثم استدار إلى السيدة نيكولز :

- وأنت سيدة نيكولز مضيفة تبعثين السرور في نفس الزائر. شكراً لكما معاً.

وقفت السيدة نيكولز :

- سآخذ الآن قيلولة قصيرة، وستتناول الشاي عند الرابعة... هنا كما أظن... آنا... خذي باتريك في نزهة.

ردت آنا بأدب :

- حاضر جدتي... لكن ربما يرغب السيد دوبارت ببعض الراحة.

صمتت لسماعها ضحكته الصامتة والتفتت إليه ليقول :

- تذكري... اسمي باتريك... فأنا لن أشعر هكذا بأنني عجوز.

لم يسيرا خطوتين حتى نادته الجدة :

- إذا لم أكن متطفلة باتريك... كم عمرك؟

- تسعة وثلاثون. لكنني أحياناً أحس أنني ضعف هذا العمر.

تنهدت :

- وأحياناً تحس أنك بنصف هذا العمر... هيا اذهبا... حين تصبح في مثل سني، لا يعود من المهم اذا بدوت شاباً أم عجوزاً... فستحتاج إلى قيلولة بعد الغداء.

ضحكا لها، لأنها تتوقع أن يضحكا، واتجها إلى خلف المنزل حيث بوابة تنفتح على مجاز ضيق وعر. حيث توقفت آنا لتنظر إلى حذاءه الفاخر اللماع وقالت :

ـ الطريق هنا وعرة.

ـ تبدو لي لا بأس بها... يبدو أنك ترغبين في تأخير المحتم.

حدقت به بصمت... هذا صحيح تماماً... لكن حين يتفوه بها هكذا تبدو حقيقة سخيفة. وأكمل :

ـ لقد جئت لأحصل على الرد آنا بيلا... فماذا سيكون... نعم أم لا؟

لم يظهر عليه نفاذ الصبر... حين لم ترد سار إلى جانبها... رجل بكل ما للكلمة من معنى... فاسترقت النظر إلى وجهه المتطلع إلى الأمام... لكنه التقط نظرتها قبل أن تتمكن من الالتفات... وبذهول كامل، سمعت نفسها تقول :

ـ نعم... على الأقل اعتقد أنني موافقة.

بسمته كانت لطيفة متفهمة، حتى أنها ابتسمت وهو يقول :

ـ كان قراراً صعباً عليك... لكنني أظنه القرار الصائب، ويتماشى مع قولي أنني سعيد.

أمسك بيدها ووقف ينظر إليها مفكراً :

ـ اعتقد أننا سنتفق معاً تماماً... مع ذلك لن استعجلك بشيء إذا أردت المزيد من الوقت للتفكير...؟

قاطعته بسرعة :

ـ لا... لا... لا أريد...

أحست بالارتياح حين سمعت بقية كلامه :

ـ هل نعقد اتفاقاً بيننا؟ إذا أحسست في أي وقت خلال الخطوبة أنك لا تريدين الزواج بي، هل تخبريني فوراً؟

ردت عليه وعيناها واسعتان بالصدق :

ـ أجل... أعدك بهذا... لكنني لن أغير رأيي.

ـ جيد... هل توافقين على خطوبة قصيرة؟ سنة... ستة أسابيع؟ سآخذك خلال الخطوبة إلى فرنسا لتقابلي الأولاد وبعضاً من عائلتي... ستحبين أن نتزوج هنا كما أتوقع؟

ـ أجل... ارجوك... وبهدوء تام... أيمكن أن نتزوج في الكنيسة؟ أعني أنك مطلق...

ـ اعتقد أن هناك رجال دين يقبلون بتزويج المطلق مع أن هذا غير عادي. ماذا عن كاهنكم المحلي؟

ـ سنسأله... أليس هناك مراسم للبركة الدينية لو تزوجنا مدنياً؟

ـ هذا ما أعرفه... سأسأل ثم أبلغك.

ـ سأضطر إلى تقديم استقالتي الآن.

ـ افعلي هذا صباح الغد... أيجب أن تكون مدة الانذار شهراً؟

ـ حسناً... لي أسبوعان اجازة سنوية، وهذا يعني أنني أستطيع ترك العمل خلال خمسة عشر يوماً...

ـ سأبقى هنا لأسبوع بعد... وسأعود إلى فرنسا لبضعة أيام. سأعود لآخذك معي فنمضي أسبوعاً هناك ثم نعود لمراسم الزواج... أيناسبك هذا؟

لقد رتب كل شيء على ما يرام... وتنهدت دون أن تدري فقال لها بهدوء :

ـ الأسف على الماضي يجعل النسيان صعباً.

توقف ليمسك بكتفيها متابعاً :

ـ ألا يمكنك قلب الصفحة؟ الأمر يحتاج إلى شجاعة...

انحنى يقبّل خدها :

www.elromancia.com

- وهذا ختم على اتفاق صداقتنا.

- أنت رجل طيب. أواثق أنت مما تفعل؟ أعني أنك لن تحصل على الكثير من هذا الاتفاق.

- لا استطيع التفكير بك كجزء من اتفاق أو صفقة عزيزتي... وأؤكد لك أنني أحصل على ما اردته تماماً. والآن دعيني أخبرك شيئاً عن بيتي.

إنه في قلب مدينة اورليان، ورسمت آنا على الفور صورة لمنزل آجرّي له نوافذ مربعة وزخرفة جصية تضيف ديكوراً لا لزوم له... على ضفاف نهر اللوار. وتابع باتريك واصفاً :

- هناك حديقة ليست كبيرة، لكنها تتصل بالنهر، فيها ظليلتان أو ثلاثة. مدبرة المنزل والمربية يساعدهما موريس باري الذي يأتي كل صباح واندرو الذي يقيم في المنزل وبيار الذي يساعد الجميع وفي كل شيء... ثم هناك الولدين سيمون وتيريز لهما غرفهما وغرفة لعبهما... لكنهما يتناولان الطعام معي، ونقضي أطول وقت معاً... وهناك كلبي سوفت، وجرو الأولاد سيزر، وقطتين ومختارات من الفئران البيضاء.

مع أن آنا ارتجفت لفكرة وجود فئران، إلا أنها قالت بحبور :

- إنه منزل مكتمل!

- أجل... وأنا أغيب من وقت إلى آخر أحياناً لبضعة أيام وأحياناً لأسبوع، وآمل أن تصطحبيني أحياناً.

- ألديك عائلة؟

- أمي وأبي في كندا يزوران شقيقتي الصغرى المتزوجة هناك... وعندي جد... رجل رائع. إنه دائماً يقول ما يفكر به

بغض النظر عن أي شيء. ثم لدي أخ أصغر مني اسمه رولاند غير متزوج لكنه لا يسكن معي بل في باريس حيث يدير الشركة الهندسية لنا هناك. وأظنك ستعجبين به.

- لكنني أحس بالاضطراب لمقابلة الولدين...

- لا لزوم لهذا، فأنا واثق أنهما سيسعدا في الحصول على أم شابة وجميلة.

- أجل... لكنني لست أمهما باتريك.

- إنهما لا يعرفانها أبداً. ويعتقدان أنها ماتت وهما طفلان حين يكبرا أكثر، سأشرح لهما الحقيقة... لكن في الوقت الحاضر ستكون الحقيقة قاسية عليهما.

- أكنت تحبها؟

لم يرد على سؤالها بل قال بصعوبة :

- أظن أن علينا العودة، فجدتك قالت أنها ستقدم الشاي عند الرابعة... هل أنت مستعدة للرحيل بعد الشاي مباشرة؟

إذن ستتزوج به دون السماح لها أن تشاركه حياته. ليس هذا الجزء منها على أي حال. لكن ماضيه لا يعنيها، ولا شأن لها به... جذبها من أفكارها سماع سؤال له يطلب معرفة ما إذا كانت تفضل السفر إلى فرنسا بالطائرة أم بالبحر. فأجابت :

- اوه... أظن أن الأمر سيان عندي فأنا لم أسافر إلى الخارج من قبل. كل رحلاتنا أنا وجدتي كانت في الداخل : اسكتلندة أو كرونويل أو البحيرات.

- إذن سنطير... هكذا أسرع، وسأجعل بيار يأخذنا من مطار باريس.

- بيار؟

- أخبرتك عنه أنه مساعدي الخاص... يعمل لدي منذ عشر سنوات، وهو صديق مخلص، وعامل ممتاز.

كانت السيدة نيكولز تنتظرهما، وأرادت أن تعرف :

- أكانت نزهتكما جميلة عزيزي؟

رد عليها باتريك :

- جداً... فالريف هنا رائع... ولقد وافقت آنا بيلا على الزواج بي... أرجو أن تكوني سعيدة؟

- أجل... سعيدة. وأتمنى لكما السعادة... متى ستتزوجان؟

ضحكت آنا :

- جدتي... لقد خطبنا لتونا! لكننا حددنا ستة أسابيع.

- أنا لا أوافق أبداً على الخطوبة الطويلة، التقيت جدك في عيد الميلاد وكنا متزوجان في رأس السنة. وكنا سعيدان كذلك. تعالي أقبلك آنا.

شاركتهم السيدة فورسيل شرب الشاي، وسمعت النبأ المثير، وسارعت إلى تخصيص باتريك بالبسكويت والكعك... وبدا باتريك قانعاً بالجلوس وترك الحديث يدور بخفة، يشارك فيه بصوته العميق من وقت لآخر... بينما كانت آنا صامتة متجهمة. فهي وافقت على الزواج منه، واحرقت المراكب خلفها، لكنها تواجه الآن عدداً من الشكوك، وربما لن تعود حياتها كما كانت... لكن.

ودعا جدتها والسيدة فورسيل، وصعدا سيارته... تحس بالرضى عن مستقبلها... لذلك فوجئت به يقول :

- طلبت منك قلب الصفحة آنا... لكن إلى الأمام، وليس إلى

الخلف. لن يفيدك الاكتئاب حول ما كان سيكون.

احمر وجهها :

- اوه... لكن من الصعب أن أنسى... ولم أكن أعرف أنك ستلاحظ...

ابتسم :

- كان كل شيء واضح على وجهك عزيزتي، ولحسن الحظ أن جدتك لم تلاحظ هذا.

- أواثق أن كل شيء سينجح؟ سأبذلك جهدي... أعدك! لكن أن أنسى نهائياً... لا أظنني قادرة.

- سيسهل الأمر عليك بمضي الوقت... ستتوقف للعشاء هناك مطعم رائع على الطريق.

لم يستعجل باتريك في العشاء، ولا في طريق العودة، ووصلا إلى منزلها بعد منتصف الليل، حتى بوصولهما وقفا يتحدثان مطولاً عند المدخل.

- شكراً لك على العشاء وعلى إيصالي إلى هنا.

- لا حاجة لشكري عزيزتي...

- أتعلم... حين استيقظت هذا الصباح كنت أنوي الرفض.

- وما الذي جعلك تغيرين رأيك؟

- لست أدري... لكنني لن أغيره مطلقاً.

أمسك بيدها ثم انحنى يقبّل جبينها، ومع أن القبلة لم تكن تعني شيئاً، إلا أنها بقيت تفكر بها بعد أن آوت إلى الفراش.

* * *

- ٤ -

المنزل الغريب

كانت تطبع بنفسها تقريراً كتبه السير جيروم بخطه المشعث حين فتح الباب ودخل باتريك... ولاحظ على الفور أنها مشغولة... فسارع إلى إعطاءها تعليمات حول التقارير التي قال لها إنه والسير جيروم قد تركاها لها كي تطبعها بنفسها... حين انتهى قال لها :

- هل تناولت الغداء بعد؟ حسناً... دعي لوسي تحضر لنا ابريقاً من الشاي؟ وسأكمل شرح التقرير الأخير.

وجاء الشاي مع السندويشات وقالت له :

- وأنت أيضاً لم تتناول الغداء أليس كذلك؟ شاركني السندويشات، لن استطيع تناولها جميعاً.

دهشت لسعادتها في مشاركته الغداء، ولمجرد وجوده معها. كانت تصب الفنجان الثاني حين دخل غريغ. فوقف مسمّراً حين شاهد باتريك. وازداد العبوس على وجهه... وقبل أن يقول شيئاً قال له باتريك :

- نحن نراجع بعض التقارير... اريدها جاهزة اليوم، لأعود واراجعها مع السير جيروم... هل أردت رؤية الآنسة نيكولز حول أمر ما؟ هل أقف في طريقك؟

شحب وجه آنا قليلاً، لكنها استمرت في صب الشاي، وأعطت باتريك فنجانه... مع ذلك فقد تنهدت ارتياحاً حين قال غريغ عابساً :

- لم يكن هناك شيء مهم سيدي... مجرد ملاحظات بسيطة... سأعود فيما بعد.

بالكاد اغلق الباب وراءه ليقول باتريك :

- لديك شيء هذا المساء؟

- لا... لكنني سأتأخر هنا قليلاً مع بعض الموظفات في قسم الطباعة، كما ترى أن هناك عمل متراكم من الأسبوع الماضي.

- وهل قابلت رئيسك بخصوص تركك العمل؟

- أجل... سويت الأمر معه. وسأتوقف عن عملي بعد اسبوعين. هل يعجبك هذا؟

- أجل... هل ستكوني متعبة للخروج الليلة؟ أتناسبك الساعة الثامنة؟

- سأكون جاهزة... شكراً لك. فالوقت يكفي حتى الثامنة.

ومرّ النهار، وحلت الساعة السابعة، ولم تكن آنا ترغب في أي شيء سوى فنجان قهوة والفراش... لكنها ما أن وصلت المنزل حتى اتصل بها بالهاتف.

- أنت متعبة... ارتدي فستاناً جميلاً بسرعة، اعرف مطعماً

صغيراً يمكنك الاغفاء فيه قليلاً بين الوجبة والأخرى حين ضحكت قال :

ـ هكذا افضل... سأنتظرك في الخارج عند الثامنة.

كانت الأمسية معه سعادة غير متوقعة... تمكنا أن يتحدثا دون أن يقاطعهما أحد، حتى أصوات الجالسين إلى الطاولات المجاورة لهما. ووجدت أنه رجل يمكن للمرأة أن تحس بالراحة معه، مع أنه لم يتحدث سوى القليل عن حياته، إلا أنها أحست أنها تعرفه جيداً... وتحدثت عن حياتها، عن طفولتها وسنوات السعادة التي امضتها مع جدتها... وسألها إذا كان هناك من تود أن تدعوه للزفاف... ثم أكد لها أنهما سيتزوجا مدنياً... ثم يجريان المراسم الدينية فيما بعد... وسيتحدثا إلى كاهن المنطقة سوية.

خبر تركها للعمل انتشر في الشركة كلها... لقد عملت هناك لثمانية سنوات الآن، منذ كانت في السادسة عشرة وتخرجت لتوها من مدرسة السكرتاريا. والجميع في الشركة من جديد وقديم يعرفها... حين قالت لهم السبب ببساطة واجهت هجوماً من الأسئلة ولم يجرؤ أحد على ذكر غريغ أمامها وأعلنت مساعدتها المخلصة، وشريكتها في الشقة، ثيلي، أن لا يهم ما يقوله الناس عن الحب من النظرة الأولى، فهو أمر يحدث دائماً، وأنها تتمنى لهما السعادة. وجهة النظر هذه وافق عليها الأكثرية من الشابات العاملات في القسم فكلهن رومانسيات القلوب، وكما قلن لبعضهن قرار آنا بالزواج من شخص لم تعرفه سوى من مدة قصيرة هو أمر رومانسي تتمناه جميعهن لأنفسهن...

ووجدت آنا نفسها، وهي من كانت تخاف العلنية، محط أنظار المهتمين والموافقين.

خلال ذهابهما لمقابلة الكاهن، أوقف باتريك السيارة ودس يده في جيبه ليخرج علبة مخملية صغيرة. وقال بصوت عادي :

ـ نسيت أن أعطيك هذا.

فتحت العلبة لتجد في داخلها خاتماً، له حجر من الياقوت الروسي الأزرق محاط بحبات الماس... وتابع :

ـ إنه في العائلة منذ وقت طويل، وأرجو أن يناسبك قياسه.

ثم انطلق بالسيارة مجدداً بينما كانت تخرجه وتضعه في اصبعها... كان مناسباً تماماً وجميلاً جداً. وشكرته بهدوء، تحس بغصة تعاسة لكونه غير مبال هكذا حول شيء مهم جداً لها. لكنه كما يبدو غير مهم له، هو فقط يحاول تطبيق الاتفاق. مع ذلك قالت له بصوت صادق مخلص :

ـ إنه مناسب تماماً... أليس هذا من حسن الحظ؟ شكراً لك كثيراً باتريك.

اصدر صوتاً يمكن أن يعني أي شيء، وقال :

ـ أيناسبك شهر منذ الآن؟ سأسافر يوم السبت لمدة أسبوع... فهناك قضية يجب أن الاحق تنفيذها حتى نهاية الأسبوع التالي. أترغبين في الذهاب معي لزيارة قصيرة؟ ستكون لفترة قصيرة لأنني مضطر للعودة إلى باريس بسرعة، ومع بعض الحظ قد أتمكن من العودة إلى هنا قبل زفافنا بيوم واحد.

وافقت على اقتراحه وسألته ما إذا كان أحد من أسرته سيحضر الزفاف.

- أمي... ولقد أخبرت رولاند طبعاً، لا أحد غيرهما... الولدان... أفضّل أن لا يكونا موجودين... ستلتقي بهما حين تسافرين للإقامة.

وتطرق في حديثه إلى أمور أخرى، ولم يعد يذكر تلك المسألة ذلك المساء... حيث ذهبا مباشرة لرؤية جدتها، ثم دون اضاعة وقت، لرؤية الكاهن، الذي كان صديقاً قديماً لآنا بيلا، رجل مسنّ بوجه لطيف وروح مرحة... قدمت زوجته لهما القهوة، بينما كان يطرح عليهما الأسئلة. ثم سجّل موعد المراسم الكنسية في مفكرته.

أعادها إلى المنزل وتمنى لها ليلة سعيدة قائلاً انه لا يتوقع رؤيتها قبل عودته من فرنسا :

- سأعود يوم السبت من الأسبوع القادم ونسافر معاً يوم الأحد... لا... سيكون الأفضل أن نسافر يوم السبت إلى دوفر بالسيارة، ونستقل الباخرة إلى كاليه، فأنا أود أخذ السيارة معي. وسنستخدم الطائرة في وقت آخر. فهل ستكوني جاهزة؟

وافقت آنا... ستنهي آخر يوم عمل لها عند السادسة، وبإمكانهما السفر عند الثامنة... وقال معلقاً :

- إذا استمر الطقس هكذا، سيكون السفر بالسيارة رائعاً من كاليه إلى باريس ومن ثم إلى اورليان... خاصة في الصباح الباكر. وستتمكني من رؤية الريف الفرنسي خلال السفر.

تلك الليلة تقلبت في الفراش كثيراً... زواجهما قد يكون ناجحاً جداً... أمامه فرصة مماثلة لأي زواج تم لأصدقاء لها، ومنهم من لم ينجح أبداً، بالرغم من الإعلان المسبق عن حبهما

لبعضهما إلى الأبد... وافترضت أن البعض كانوا فعلاً يحبون بعضهم واستمروا في هذا الحب إلى الأبد، وهذا أمر يحسدون عليه، لكنه لا ينطبق عليها.

بغياب باتريك، بدا لها الأسبوع طويل بشكل غريب. فقط اعتادت على رؤية جسده الضخم في مكان أو آخر من مكاتب الشركة... حتى ولو لم تتمكن من التحدث إليه فقد كان وجوده يبهجها. وامضت آخر يومين من الأسبوع، ولكل لحظة من لحظات فراغها بتوضيب اغراضها الخاصة من المكتب، وتركت البعض الآخر لتلتقطها بعد عودتها من فرنسا. وتمكنت من التسوق... تفتش عن ثوب زفاف لائق، ووجدت فستاناً ذهبي اللون من الحرير، وقبعة قش تناسبه، مليئة بالزهور. على الأرجح لن ترتديه مرة ثانية لكنه بدا لها رائعاً للمناسبة...

كانت جاهزة تنتظر بحلول مساء السبت حين اتصل بها البواب ليقول لها أنها مطلوبة عند المدخل. كانت قد ودّعت أصدقائها وشكرتهم على حفلة الوداع الصباحية التي قدموها لها، وودعت السير جيروم ورئيس القسم وموظفيه، متجنبة اللقاء بغريغ.

خرجت إلى المدخل لتجد باتريك ينتظرها، فسارع إليها ليقبل رأسها ويقول :

- تصبحين أجمل في كل مرة أراك فيها.

فابتسمت :

- مرّ علي اسبوع طويل... وأنا جاهزة إذا أردت الانطلاق الآن.

- ولمَ لا؟ لقد انهيت كل أعمالي، ورأيت من أريد رؤيته،

والباخرة المعدّية تنطلق في العاشرة والنصف... سنتناول العشاء في طريقنا إلى «دوفر» وإذا اسرعنا يمكننا المرور لرؤية جدتك، إذا أردت هذا...

هزت رأسها :

- اتصلت بها اليوم، ولن تتوقع منا زيارتها... وقلت لها أننا سنتصل حين نعود.

- يا فتاتي العزيزة يمكن أن نتصل بها لحظة وصولنا إلى منزلي... سنتحدث وقت العشاء، فهناك أمور يجب أن نبحثها.

- سأحضر حقيبتي اذن.

- وسأرافقك.

ابتلعت السيارة المسافات متجهة إلى دوفر لتلحق بمعدّية الليل، وهي تجلس إلى جانبه كانت تصغي إلى حديثه الخفيف... وتحس بالإثارة... حتى هذه اللحظات يبدو لها كل شيء كالحلم... حلم مستحيل قد لا يتحقق... لكنه يتحقق... ربما كان يجب أن تصرّ على مزيد من الوقت لتفكر بتعمق أكثر... وهمست :

- باتريك...

- لا تقولي شيئاً... أنت خائفة أليس كذلك؟ ما تظنيه حلماً يتحقق... صحيح؟ وتحسين أنك مندفعة نحو أمر لست واثقة منه تماماً. لكن هذا غير صحيح، أنت قادمة معي لتمضي بضعة أيام مع عائلتي، وإذا أحسست في نهاية المدة أنك غير قادرة على الاستمرار، بإمكانك فعل ما شئت. ولقد قلت هذا لك عزيزتي : الباب لا يزال مفتوح على مصرعيه أمامك للخلاص.

بدا كلامه طبيعياً ومنطقياً، فردت على الفور :

- بالطبع أنت محق... لكن ما ينتابني هو توتر اللحظات الأخيرة.

- ستزول بعد العشاء، لا بد أنك جائعة.

تناولا العشاء بارتياح، أمامهما وقت طويل، ثم انطلقا مجدداً، ليصلا في الوقت المحدد تماماً وصعدا بالسيارة إلى المعدّية دون انتظار طويل... واقترح عليها الدخول رأساً إلى مقصورتها لتنام وتمنى لها ليلة سعيدة، ونامت جيداً، لتستعيد مرحها حين استفاقت في الصباح ليستقبلها بالترحاب ويتناول معها الشاي على سطح المركب، وكانت المعدية على وشك الرسو فنظرت حولها بدهشة لملاحظتها أن ميناء كاليه يشابه في منشآته ميناء دوفر... لكن هذه بلد غريبة لها، وهي لم تسافر من قبل خارج بريطانيا، ووقفا معاً يراقبان اقتراب المركب من الرصيف إلى أن حان موعد صعودهما في السيارة... والمرور عبر الجمارك والجوازات، ثم البدء في رحلتهما إلى أورليان.

كان الوقت لا زال مبكراً، لم تصل الساعة السابعة بعد. لكن الطريق مليء بالسيارات... ولم يتجه باتريك إلى العاصمة باريس بل تجاوزها من طريق بعيدة أوصلتهما إلى اميان، ومن هناك إلى بوفيه ثم فرساي حيث توقفا لتناول الفطار، مع أن آنا كانت قانعة بالاستمرار في الرحلة، فحولها الكثير من الريف الفرنسي الجميل لتراه. لكنها كانت جائعة... حين توقفا عند مطعم رائع في الغابة خارج المدينة، اكتشفت أنها تكاد تموت جوعاً، فملأت معدتها بالخبز الفرنسي الشهير الممزوج بالسكر والحليب مع قطعة من اللحم والبيض والجبنة.

وسألته :

- هل سيكون ولداك في المنزل حين نصل؟

- انهما يغادران المدرسة عند الظهر... وسنصل إلى هناك قبل هذا الموعد بكثير... إذا انهيت طعامك الآن... نستطيع الانطلاق مجدداً.

أخذ باتريك يشير إلى كل شيء في الطريق يعتبره مهماً لها، وطرحت بضع أسئلة... لكنها ادركت أنه يريد الوصول إلى أورليان في أسرع وقت ممكن، لكنه كان لطيفاً بما يكفي ليبطىء سير السيارة كلما أبدت اعجابها بشيء لفت نظرها... ولم يصلا إلى ضواحي المدينة حتى الساعة الحادية عشرة... أخرجت ادوات الزينة من حقيبتها، وأضافت القليل إلى وجهها ثم احمر الشفاه على فمها، ودهشت لمظهر الهدوء على وجهها بينما هي من الداخل تحس بالاهتياج والقلق. وقال باتريك :

- نكاد نصل.

مرا أمام الكاتدرائية القديمة، ثم قطعا الجسر فوق نهر اللور إلى الضفة اليمنى حيث المدينة القديمة حيث وجدت نفسها محاطة بمبان سكنية جميلة كانت في هدوءها وكأنها في عالم آخر يختلف عن القسم الجديد المكتظ من المدينة.

خفف باتريك سرعة السيارة ثم توقف :

- ها نحن وصلنا.

مال إلى الباب يفتحه لها ثم خرج بدوره... ولم يكن ما شاهدته أمامها منزل من الآجر الأحمر كما تصورت، ولا مجرد شقة بل كان مبنى قديم، يرتفع اربعة طبقات، سقفه المثلث المتقن الصنع

يتوّج واجهته العريضة. الباب قديم كذلك وضخم، لهم نوافذ واسعة على كلا الجانبين، ثم صف من النوافذ فوق المدخل يزداد حجمها وعددها في كل طابق حتى الطابق الأعلى الواقع تحت المثلث المنحني. والتفتت إلى باتريك :

- إنه ليس أبداً ما توقعت. إنه... إنه جميل وكبير.

- إنه جميل وقديم، ومليء بالممرات والسلالم غير المتوقعة، والغرف الصغيرة المضحكة، صحيح أنه غير ملائم كثيراً، لكنني لن أبدله بالدنيا كلها... وأتمنى أن يعجبك كذلك آنا بيلا.

ردت بحماس :

- اوه... سيعجبني... لكنني الآن مندهشة.

ضحك وأمسك ذراعها ليسيرا فوق الرصيف، ويصعدا ثلاثة سلمات إلى الباب الأمامي. فانفتح ما أن وصلاه، ليقف رجل في منتصف العمر له وجه مرح يستقبلهما :

انحنى نحوهما بأدب وقال بانكليزية مكسرة لا يتكلمها سوى أبناء لندن :

- أهلاً بعودتك إلى منزلك يا سيدي... وأنت آنسة.

- آه. بيار... سعيد لعودتي... كيف يجري كل شيء؟

- كل شيء على ما يرام سيدي.

- هذه الآنسة نيكولز خطيبتي يا بيار. وستعتني أنت بها.

- طبعاً... وأنا فخور لوجودها بيننا.

أمسك باتريك بذراع آنا وأدخلها إلى الردهة وامتد أمامهما ممر ضيق مرتفع السقف، بدا أن لا نهاية له... وتطلعت حولها بفضول، مأخوذة بالطاولات الجانبية الرخامية السطح

والجدران المكسوة بالخشب اللماع، واللوحات المعلقة. لكنها لم تجد أثراً لسلم... حين وصلا إلى نصف الممر شاهدت واحداً في الزاوية اليمنى، سلم أنيق مزخرف، درجاته متآكلة بفعل دوس ما لا حصر له من أقدام، وكان بيار قد تقدمهما ليفتح باباً دخلاه إلى غرفة رائعة، ليس فيها نوافذ، لكن النور كان يملأها من نوافذ واسعة في غرفة أخرى أوسع منها بكثير، متصلة بها. وأقفل بيار الباب وراءه، وترك باتريك ذراعها، لتبقى واقفة في مكانها... لا شيء حولها كان كما توقعته... كان إحساسها يقول لها إنها تحلم... لكنه حلم لذيذ، وهو حلم على أي حال. وسألته :

- باتريك... لهجة بيار لهجة أبناء لندن القدماء... كيف وصل إلى هنا؟

- إنها قصة طويلة... وهو رجل رائع، أثق بحياتي معه.

- ومدبرة منزلك اسكتلندية.

ضحك :

- هذا صحيح... لا بد أنك توقعت مرافقاً فرنسياً ومدبرة من أهل الريف.

ورفع يداه إلى كتفيها ليكمل :

- عزيزتي... من غير اللطف من أن أصارحك لدرجة الازعاج... لكنني لم أفكر من قبل أن أخبرك عن بيار، ولا عن أي شيء آخر. لكنك دائماً متعقلة وهادئة...

قاطعته :

- ليس دائماً.

- مع ذلك كانت الزوجة التي ارغب بها تماماً... وستنجحين هنا بشكل رائع.

لكن... بطريقة ما... الطريقة الودية العرضية العادية التي قال هذا بها... اشعرتها بالارتجاف.

* * *

www.elromancia.com

- ٥ -

العائلة الجديدة

كان من المستحيل أن تبقى ترتجف لفترة طويلة... لكن قبل أن ترد على باتريك عاد بيار يحمل صينية قهوة، وفي أعقابه مدبرة المنزل، التي قدمها باتريك على أنها السيدة جايمس، التي تعمل هناك منذ كان صبياً، وهي صديقة إضافة إلى كونها أفضل مدبرة منزل في العالم. فأجابت المرأة :

ـ وسأستمر معك سيدي... مع أنني واثقة أننا جميعاً سنبذل جهدنا لأراحتك. نتمنى لك وللآنسة حياة سعيدة معاً.

وابتسمت لآنا، عيناها الصغيرتان الزرقاوان، تلمعان، ومدت يدها تصافحها.

ـ أنت فتاة نحيلة... لو سمحت لي بقول هذا.

ردت آنا الابتسامة بمرح، تحس أنهما سيتفقا. إذ يبدو أن المرأة لم تكن إلا لطيفة مع الجميع طوال عمرها... وذاب البرود الذي أحست به، ثم اختفى تماماً حين قال بيار بحرارة :

ـ إنها الجمال الحقيقي... وعفواً على التعبير آنستي... نحن فخورون بأن تكوني معنا.

حين اصبحا لوحدهما، قال لها باتريك :

ـ سيكونا مخلصان لك... فهما يحثاني على الزواج منذ سنوات.

ـ أوه... وهل طلبتني لهذا السبب؟

ـ لا... بل طلبتك للأسباب التي قلتها لك... ألن تجلسي لتناول القهوة.

جمدت مكانها، وقالت عابسة :

ـ لقد أغضبتك... لكن مسموح لي أن أفعل هذا... أليس كذلك؟ أنا لا أعرفك جيداً. وعرفت لتوي أن لك طبع سيء، وتحب تنفيذ رغباتك. وسأبذل جهدي لأبقى مع الجانب الصحيح معك... لكن أحياناً مسموح لي أن أتحدث بما أفكر به. فأنا لست مجرد تابعة لك.

ضحك...

ـ يا فتاتي العزيزة... أشكر الله أنك لست هكذا! ثم أنت محقة... لي أطباع سيئة، مع أنني أجاهد لابقيها ضمن حدود المعقول. ثم أنني أحب تنفيذ رغباتي. والآن اجلسي وصبّي القهوة. اعرف تماماً أنك لست التابعة، وإلا لما تزوجتك.

صبت القهوة، وهما يرتشفانها قالت :

ـ المكان جميل جداً، وأظنني بعد أن أتغلب على قلقي سأحبه كثيراً... ألن تخبرني قصة بيار؟ كيف وصل إلى هنا؟

وضع ساقاه فوق بعضهما :

- وصل باريس منذ عشر سنوات كسائق لمخدومه الثري... لكن حادثة حصلت له أصيب بها إصابات بالغة، ولم يصب مخدومه بشيء فعاد إلى انكلترا وتركه في المستشفى قائلاً إنه سيبقى على اتصال ويعيده إلى خدمته حين يستعيد عافيته... لكن حين حاول المسكين الاتصال به، لم يجده... وعرفت بقصته من طبيب صديق لي فدفعت مصاريفه وأخذته... وهو نافع جداً في خدمة المنزل.

- والسيدة جايمس؟

- أمي كانت في المدرسة مع فتاة اسكتلندية، وحين تزوجتا كانتا تزوران بعضهما بانتظام... وأعجبت أمي بالسيدة جايمس في أحد الزيارات، وحين مات السيد جايمس فجأة، جاءت إلى هنالترى إذا كانت قادرة على العيش معنا، وبقيت هنا منذ ذلك الوقت.

- وهل مربية الأولاد فرنسية؟

- أجل إنها من هذه الضواحي. ومخلصة للولدين. وهي تحدثهما بلغتنا إضافة إلى الفرنسية.

- لغتكم؟

- لدينا لغة خاصة هنا... كما في بريطانيا حيث لكل منطقة لغة خاصة. وهي مختلفة جداً عن الفرنسية العادية. واتوقع أن تلتقطي بعضاً منها بسرعة... اتحبين الآن أن تذهبي إلى غرفتك؟

لحقت بالسيدة جايمس إلى الطابق الأعلى، ثم عبر الردهة التي تعلو السلم، إلى غرفة تطل عليها. كانت جناحاً واسعاً، له نوافذ مرتفعة وعريضة عليها ستائر من الحرير السميك الموشى بألوان الزهرية والزرقاء، بنفس الألوان تتكرر في الأغطية والشراشف

فوق السرير الضخم ذو الأربعة قوائم. لوحدها هناك أخذت آنا تستكشف المكان، تفتح الخزائن، تنظر إلى الحمام، تتطلع خارج النافذة وأخيراً تجلس على السرير العريض... أخيراً، بعد أن انهت ترتيب نفسها نزلت السلم مرة أخرى، لكنها لم تجد أثراً لأحد... ربما كان عليها أن تبقى في غرفتها إلى أن يجيء أحد في طلبها. كانت تتساءل أي باب تطرق حين انفتح الباب الأمامي ودخل منه شاب. للمحة من الثانية ظنته باتريك... وكأنه قرأ ما يجول في رأسها فقال متقدماً نحوها :

- لا... لست باتريك... أنا شقيقه الأصغر رولاند... وأنت آنا بيلا... أنت أجمل مما وصفه لي... لماذا لم أشاهدك قبله؟

ضحكت آنا، فهو شاب ودود مرح ومن الصعب أن لا يُعجب المرء به، مدت يدها تصافحه، وكان لا يزال يمسك بيدها حين انفتح باب آخر ودخل باتريك إلى الردهة :

- برنارد... كم هذا رائع... لم أتوقع قدومك... تعارفتما؟

التفت إلى آنا :

- أخشى أن أكون مضطر على الخروج لفترة عزيزتي، لكن بوجود برنارد... ستكونين على ما يرام.

واستدار إلى أخيه :

- خذها في جولة في المنزل... أتسمح؟ وابقى معنا إلى العشاء إلا إذا كان لديك شيء أفضل.

- لا أتصور شيئاً أفضل من رفقتكما.

حياهما باتريك، وعاد إلى الاعتذار لترك آنا لوحدها. وطلب من أخيه مجدداً أن يرافقه إلى المكتبة لبضع دقائق.

www.elromancia.com

نظرت إلى ساعتها، كانت تشير إلى عشر دقائق قبل الثانية عشرة. عند الظهر سيجيء الولدان من المدرسة، فكرة لقائهما لأول مرة لوحدها جعلتها تحس بالحرارة ثم البرودة، وجلست تراقب الساعة... بعد عشر دقائق من تمام الساعة سمعت أصواتاً في الردهة، أصوات الطفلين، وحضّرت نفسها للقاء. وانفتح الباب واطلقت نفسها محصورة. إذ دخل الرجلان يمسك باتريك بذراع ابنه بينما تتعلق البنت به من الجهة الأخرى، ووقفت... فقال لها :

- آنا بيلا... هذان هما سيمون وتيريز... عزيزاي هذه هي آنا بيلا نيكولز، التي ستتزوجني بعد أسابيع.

مدا أيديهما معاً :

- كيف حالك.

لكن عيناهما الزرقاء ارتفعت إليها مليئة بالكراهية. لم تكن تتوقع هذا... لكنها تعرف ما يكفي عن الأطفال لتعرف أن رد فعلهما هذا طبيعي... وعليها أن تكون صبورة، وتعطيهما الكثير من الوقت. وردت عليهما :

- كيف حالك سيمون... كيف حالك تيريز؟ أنا سعيدة للقائكما... وأرجو أننا حين نتعرف إلى بعضنا أكثر، سنكون أصدقاء.

قال باتريك :

- أه... أنا واثق من هذا... والآن اصعدا إلى عند المربية ونظفا أنفسكما استعداداً للغداء.

- حاضر «پاپا» هل لنا أن نأخذ آنا معنا للقاء المربية؟

تردد :

- ليس أمامنا وقت يكفي... ستتناول المرطبات هنا قبل الغداء، وناني ستؤخرها.

- لن نتركها تؤخرها «پاپا» مجرد دقيقتين... أرجوك...

ابتسم لهما :

- حسناً... ما رأيك آنا؟

- سأحب لقاء المربية.

كانوا في طريقهم إلى الأعلى حين سألها سيمون :

- اتتحدثين لغتنا آنا؟

وابتسم حين ردت :

- ولا كلمة واحدة... وآمل أن تعلماني.

تدخلت تيريز تقول برضى :

- أنت وناني لن تتفاهما إذن.

ردت آنا :

- إذن علينا فقط الابتسام لبعضنا.

فتح سيمون أحد الأبواب ودعا آنا للدخول، وهي تمر إلى جانبه سألته :

- قل لي سيمون... أين تعلمتما الانكليزية بهذه الجودة؟

- من پاپا والسيدة جايمس وبيار. كلهم يتحدثون الانكليزية معنا. ها هي ناني.

ابتسمت آنا وهي تستدير... لكنها وجدت المرأة المتوسطة في السن تقف قرب المدفئة دون ابتسام، كانت تحدق بها بقسوة ووجه متجهم... كانت طويلة شديدة النحول شعرها أشقر لدرجة أن الشيب فيه بالكاد كان ظاهراً.

وقف الولدان بصمت، فأدركت أنهما لا ينويان الكلام... فدخلت تمد يدها قائلة :

- أنا آنا بيلا نيكولز... كيف حالك - ناني؟

أمسكت المرأة بيدها لكن قسماتها لم تلين. وقالت شيئاً لم تفهمه آنا. ثم تكلمت إلى الولدين الذين ردا عليها ثم اختفيا في باب في الطرف الآخر من الغرفة.

لوحدها مع الناني، ابتسمت لها مجدداً، ثم اخذت تجول في الغرفة تتفحص محتوياتها. كانت تحتوي على أنواع مختلفة من الألعاب... كانت تنظر إلى لعبة حين عاد الولدان...

- اوه... مرحباً... ها أنتما، كم هذه الألعاب جميلة... إذا كنتما جاهزين، يجب أن نعود إلى حيث أبيكما.

قال الولدان شيئاً للمربية، وردت عليهما باختصار، ثم احنت رأسها باختصار لآنا... وقف الرجلان حال دخولها الغرفة ناولها باتريك كوب العصير قائلاً :

- هل قدماك إلى المربية؟ أرجو أن يكونا قد ترجما لك ما قالته، فإن انكليزيتهما جيدة جداً.

- إنها رائعة... والمربية رائعة كذلك... وأظنها تحبهما كثيراً.

- اوه... هذا صحيح... لدرجة الإفساد... وهنا يجي دورك يا عزيزتي...

كان الولدان جالسان مع عمهما لكن قريبان لدرجة يسمعان صوتيهما... وأجابت آنا باحتراس :

- لا أحد يمكن أن يأخذ مكانها... إنها مميزة... اليس كذلك؟

قدمهم بيار للغداء، تساعده فتاة شابة مرحة. والطعام كان لذيذاً... وأكلت آنا بتلذذ بعد رحلتها الطويلة والإثارة التي واجهتها... حوالي نهاية الوجبة قال لها :

- عليّ الآن السفر إلى باريس لأكون في مكاتب الشركة... لدي اجتماع هام... اتسامحيني لتركي لك وحدك؟ سنخرج معاً في المساء إذا رغبت، أو نبقى في المنزل...

- أود البقاء هنا... وتريني المنزل... فنحن لم يتم لنا الوقت الكافي.

- طبعاً... فالولدان يذهبان إلى النوم عند الثامنة، موعد تناول العشاء حين أكون هنا... أيناسبك هذا؟

على أي حال، عاد باتريك إلى المنزل بعد حوالى النصف ساعة من عودتهما من جولة في الحديقة ليجدها جالسة في غرفة الجلوس الصغيرة التي ادخلها إليها بيار... وقال لها :

- لا بد أنك تظنين أنك منسية هنا... وأنا آسف، لكن لكونك سكرتيرة متفوقة، يمكنك فهم اجتماعات العمل هذه.

وكيف تتأخر عادة. لكنني حرّ بعد ظهر الغد... وسآخذك لرؤية الريف... وقد تحبين في الصباح أن تأتي إلى المكتب معي. رولاند هو المسؤول هناك.

مدد نفسه في مقعد طويل قبالتها، يبدو مرتاحاً، حين ادخل بيار الشاي، وصبته، قال لها :

- هذا رائع... لقد نسيت تماماً ما تعني العودة إلى المنزل وفيه من ينتظرني... هل الولدان في المنزل؟

أحست وكأنهما متزوجان منذ سنوات... وأجابت :

www.elromancia.com

- أجل إنهما في غرفهما يتناولان الشاي كما يفعلان دائماً.

- لكنهما عادة ينزلان إلى هنا حين أكون في المنزل... لكنني أظنهما خجولان... مضى زمن طويل لم يخجلا فيه، كيف وجدتيهما؟

فكرت بصمت أنهما كانا غير وديين معها... وبكل بأكيد ليسا خجلين. لكنهما ليسا مستعدين أن يكتشف والدهما هذا.

لكنهما لم يكونا بالفعل خجولين، فحين انضما إليهما في غرفة الجلوس، كانا مثال التهذيب، وطرحا عليها أسئلة عن انكلترا وأخبراها عن مدرستهما، وأرادا معرفة موعد الزفاف. لكنهما كانا طوال الوقت ينظران إليها بعدائية جعلتها محتارة مع شيء من الخوف.

كانت تخاف من أن لا يحبانها، وأن لا يتقبلانها في العائلة... لكن لا بد أنها تتخيل كل هذا لمجرد أنها لم تعتد بعد عليهما ولا على المنزل... ربما يحسان بالغيرة لخشيتهما أن تأخذ حصة الأسد من اهتمام والدهما. وغادر الولدان غرفة الجلوس بعد وقت قصير ليكتبا فروضهما المدرسية، وتمنيا لها ليلة سعيدة، ثم أخذا يتحدثان بالفرنسية إلى أبيهما، فضحك.

- هذه عادة اكتسباها... يجبان أن أصعد إلى غرفتهما لأتمنى لهما ليلة سعيدة... وهذه مهمة سأوكلك بها حين نتزوج.

لاحظت الغضب الفوري على وجهيهما فقالت مترددة :

- اوه... لست أدري... يبدو أن هذه عادة جميلة... وسأفكر بواحدة خاصة لي. فوالدي كان يدللني بنفسه وأنا صغيرة.

لمعت عيناه :

- يمكن أن أفكر بإجابات كثيرة على كلامك هذا، ولو كنت أصغر سناً، لجربت احدى هذه الإجابات... اسمعي، أمامنا نصف ساعة قبل أن نبدأ تغيير ثيابنا، ما رأيك لو نخرج إلى الحديقة؟ نسيت أن أقول لك أن هناك بعض الأصدقاء قادمون الليلة... شريكي وزوجته، رولاند وصديقته المقربة، طبيب المستشفى القريب، الدكتور مارفل وزوجته... السيد سينكلير وزوجته التي هي في نفس الوقت مساعدتي الشخصية، والسيد ديفور كبير المحاسبين في شركتي.

- اوه... أهم قادمون للعشاء؟

- أجل... ظننتك ستمرحين لو أقمنا حفلة. اعرف أننا اتفقنا على الخروج ومن ثم مشاهدة المنزل، لكن بالإمكان تأجيل هذا. وفرصة جيدة أن تلتقي بأشخاص سترينهم كثيراً في المستقبل.

كانا يحتسيان شرابهما حين وصل رولاند برفقته فتاة، واهنة الجسم شعرها اجعد ترتدي فستاناً بدا وكأنه قماش خيمة فضي، قدمها رولاند.

- ميريت... هذه آنا بيلا... آنا بيلا تبدين ساحرة... حبيبتي ألا يمكنك ارتداء فستان يظهر القليل منك؟

ردت آنا بعد أن اكتشفت متعجبة أن ميريت خجولة غير واثقة من نفسها.

- لكنه ثوب جميل.

ابتسمت الفتاة، وسألت بأنفاس مقطوعة :

- أوه... اتظنين هذا؟ تبدين جميلة.

- شكراً لك... تتحدثين الإنكليزية جيداً... أنا أشعر بالغباء لعدم معرفتي الفرنسية.

رد باتريك :

- ستلتقطينها بسرعة.

والتفت يحيي شريكه السيد جيلبير وزوجته ماثيلدا زوجان رائعان امطرا آنا على الفور بأسئلة ودية. ووصل الزوجان فاريل بعدهما، شارل وسوني، وفي اعقابهما كبير المحاسبين ديفور ثم سارة سينكلير، التي وضعت يدها على ذراع باتريك وقبلت خده.

لا بد أن شخصاً ما حاول جهده لإنجاح الأمسية. العشاء كان رائعاً... مع القهوة. لكن هذا لم يكن كل شيء، فالجميع هنا يعرف الجميع، ولاحظت آنا أنهم يبذلون جهدهم كي تحس بالترحاب بينهم... وابتدأت شكوكها بالزوال، وبدا لها المستقبل دافئاً مرحباً.

ودعا الضيوف معاً. ثم أغلق باتريك البوابة القديمة الثقيلة وتأبط ذراعها.

- ما رأيك بأصدقائي يا عزيزتي؟

- رائعون... جعلوني أحس... لست أدري ما أقول... لكنهم عاملوني وكأنهم يعرفوني منذ سنوات.

- لقد أحبوك، وكلهم قالوا أنك جميلة... وأنت فعلاً جميلة آنا بيلا.

- أنا سعيدة لظنك بي هذا. وأتمنى أن تبقى فخوراً بي... وسأبذلك جهدي لإرضائك.

- أنا واثق من هذا، وأنا فخور فعلاً بك.

انحنى يقبل خدها بسرعة، أحست معها بالارتجاف فقالت :

- سأذهب إلى الفراش الآن... كانت أمسية جميلة... اليوم كله رائع... تصبح على خير.

تراجع عنها مبتسماً :

- تصبحين على خير عزيزتي.

نامت دون اهتزاز إلى أن أدخلت لها الخادمة القهوة فاستفاقت تبتسم لنور الشمس الذي يملأ الغرفة، وكانت الساعة السابعة والنصف... شربت قهوتها، وسارعت في الاغتسال... ستذهب اليوم مع باتريك إلى المكتب ولا يجب أن تؤخره... ارتدت ثيابها، وضعت الماكياج المناسب، ثم مشطت شعرها مفلوتاً على كتفيها... ثم نزلت مسرعة إلى الطابق الأسفل.

في الردهة توقفت... هناك عدد كبير من الأبواب، بضع منها مفتوح قليلاً... كانت تعرف أبواب غرفة الجلوس، غرفة الاستقبال، غرفة الطعام والمكتبة... لكن البقية كانت مجهولة لها. وكانت على وشك الدخول إلى أحدها حين سمعت صوت باتريك :

- إلى هنا آنا... الباب الذي في الوسط إلى يسارك.

جذب لها كرسياً وهو يتمنى لها صباحاً مشرقاً، وجلست أمام طاولة بيضاوية صغيرة وقال لها :

- شاي أم قهوة؟ القهوة هناك... لكن السيدة جايمس احضرت لك ابريق شاي في حال رغبت به.

ضحكت :

- لكنها ارسلت لي فنجان قهوة ضخم لتوها... سأفضل الشاي.

كانت ترتشفه حين دخل بيار.

ـ صباح الخير آنستي، تودين بيضتين أم ثلاثة مع اللحم؟

نظرت إلى الطاولة لتجد المربى والتوست والجبن وعصير البرتقال... وهم يتوقعون منها تناول البيض واللحم... بيضة واحدة تكفي... وهز رأسه منسحباً. وقال باتريك :

ـ عاداتنا هنا كلها انكليزية... الطقس الحار وحده ينقذنا هنا من تناول العصير. هل نمت جيداً؟

ـ دون حراك... متى تريد الذهاب إلى المكتب؟

نظر إلى ساعته :

ـ بعد نصف ساعة، أيناسبك هذا؟

ـ طبعاً... ألا ينزل الولدان لتناول الفطار؟

هز رأسه :

ـ المربية تقول أنهم لا يأكلون جيداً إذا لم تكن موجودة لمراقبتهم ربما هذا شيء ستتمكنين من تغييره فيما بعد... لقد كبرا عن قدرتها على السيطرة عليهما، ولا أحلم أن أبعدها عنهما. لكنني أرغب في أن تتوقف عن تدليلهما كالأطفال.

نسيت كل شيء حين وصلت مكاتب الشركة في أحد ضواحي باريس القريبة الى الريف... وأبدت آنا اهتماماً فائقاً، تدس أنفها في كل مكان لتتفرج. تطرح أسئلة لا تنتهي كان يرد عليها باتريك تارة ورولاند تارة أخرى ثم جلست لوحدها في مكتب باتريك بينما ذهب مع أخيه للاجتماع مع زبون. مما شاهدته، الشركة تسير على خير ما يرام، وتأثرت بما شاهدت، وكان من غير المعتاد لها أن تضم شركتان كبريتان مثل هذه الشركة والشركة التي كانت

تعمل فيها في انكلترا قواهما معاً لتنفيذ مشاريع عالمية... لكن يبدو أنهما ناجحان حتى الآن.

فيما بعد، حين انهى باتريك عمله، وعادا إلى المنزل أخبرها المزيد عن شركته... لم يبالغ ولم يشتد حماسه كما فعل أخوه من قبل لكنها أحست بثقته في عمله، إن كان هنا في فرنسا أو في الخارج. وسألته :

ـ أتظن الفكرة ستنجح مع شركات أخرى في انكلترا؟

ـ أجل، فالسير جيروم متحمس، وكذلك شركة أخرى وسأسافر إلى بلجيكا بعد أيام لتأسيس تعاون جديد مع شركة هندسة ومقاولات هناك... سأعيدك إلى منزلك أولاً... أم تفضلين المجيء معي؟

ـ أجل... ارجوك... لكن ماذا عن سيمون وتيريز؟

ـ سنتدبر أمر عطلة معهما في فرصتهما الصيفية... أملك مركباً في الريفيرا الفرنسية على شاطىء المتوسط، يمكننا قضاء بضعة أيام هناك... اتحبين الإبحار؟

اعترفت آنا بقلب منكسر أنها لا تحبه، فمعرفتها بالمراكب لا وجود لها، وليست واثقة أنها ترغب في تعلم أي شيء عنها.

طار ما تبقى من أيام... وغاب باتريك أكثر الوقت. ولم يتعشيا يوماً لوحدهما، كان إما أن ينضم إليهما الأولاد أو رولاند، وفي آخر ليلة حضرت سارة لتشكل ثلاثياً أحست آنا أنها غير مرتاحة له.

كانا سيسافران في المساء التالي، وكان لديه عمل طوال النهار...

ـ وهكذا لن نرى بعضنا كثير... لقد تمتعت بكل لحظة معك

عزيزتي، ولم يبق سوى أن تخبريني ما إذا كنت لا زلت مصممة على الزواج مني.

- طبعاً.

فابتسم وقبلها ببرود على خدها وكأنما الأمر لا يهمه كثيراً.

- جيد... وأنا واثق أن الولدين أحباك، مثل الجميع.

- كلهم رائعون.

ولن تخبره مطلقاً عن وجود أحد فئران سيمون البيضاء، فقد شاهدت الأغطية تتحرك، وكادت تموت رعباً قبل أن تستجمع قواها وتزيل الحيوان الصغير لتأخذه إلى سيمون الذي سألها بخبث :

- ألا تحبين الفئران؟

- إنها ليست المفضلة لدي... لكنني أراه لطيفاً... ما اسمه؟

- اسمه تازار... شكراً لأنكِ جئت به إليّ... عمت مساء.

وردت عليه بطريقة هادئة لتغادر الغرفة.

* * *

- ٦ -

وتحقق الحلم!... لكن...

بعد الاتساع الكبير لمنزل باتريك، وجدت آنا منزل جدتها يليق بالأقزام.

وصلا في صباح اليوم الذي تلا في الوقت المناسب لتناول فطار متأخر... وتحادثا مطولاً، لأن العجوزتان كانتا تريدان معرفة كل شيء، بعد أن تقرر أن تصبح آنا من العائلة الآن.

فيما بعد، أوصلت آنا باتريك إلى غرفة الضيوف، ثم انخرطا في نقاش حول الزفاف وبما أنه مضطر للعودة إلى فرنسا في المساء التالي فقد تركا العجوزتين بعد القهوة، وسارا نحو القرية للتأكد من أن الكاهن سجل اليوم والتاريخ الصحيحين. وهما يتمشيان أخبرته أنها اشترت ثوباً خاصاً للزفاف. فنظر إليها :

- وهل هو مفاجئة؟

- حسناً... ربما... أعني من المفروض أن يكون، مع أنه ليس مثل...

www.elromancia.com

ضحك :

ـ تعني أننا تجاوزنا مرحلة الساتان الأبيض والطرحة والوصيفات... ألا يعجبك هذا؟

صاحت برعب :

ـ يا إلهي... لا! أنا في السابعة والعشرين... ثم كيف يمكن أن نتمتع بالزفاف ونحن نفكر بالطرحة والزهور والضيوف؟

ـ اذن تنوين التمتع بالزفاف؟

ـ طبعاً... وأنت؟... آسفة، سخف مني أن أسأل...

نحن صديقان... وأحس بالراحة معك، وتعرف كل شيء عني لكنني لا أعرف عنك الكثير، وأريد فقط أن أعرف ما تريدني أن أعرف.

ـ الصداقة تختلف عن الحب.

احمر وجهها :

ـ هذا صحيح... هل ستعود بالطائرة يوم الزفاف؟

ـ لا، سأحضر مع رولاند بالسيارة وسيعود هو بالطائرة. وهذا ما يذكرني بالشهود، من تريدين أن تكون شاهدتك؟ جدتك، أم أن هناك غيرها؟

ـ ليس لدي لا عمات ولا خالات.

ـ ما رأيك بدعوة السير جيروم وزوجته؟

ـ وهل ستعود رأساً إلى فرنسا؟

ـ هذا صحيح. فلدي أعمال كثيرة لا استطيع التأخر عليها.

استدارا ليعودا من حيث أتيا إلى المنزل... حين سافر أحست

بالشوق إليه... كان المنزل الصغير يبدو مليئاً في وجوده... وشغلت نفسها بتوضيب ثيابها التي ستأخذها معها.

ومرت الأيام. اتصل بها باتريك من بلجيكا، ووصلتها بطاقة من السيدة جايمس، وأخرى من بيار، وتمنت لو أنها حصلت على شيء من الولدين، وكان عليها أن تذكر نفسها أنها لا زالت غريبة عنهما، والصبر وحده هو ما ينفعها.

وصل باتريك ورولاند بعد ظهر اليوم المحدد، وشاهدت آنا سيارته الروفر تتوقف أمام المنزل، فأسرعت لاستقبالهما، لو أنها اصيبت بخيبة أمل من تحية باتريك الباردة، فقد عوض عنها رولاند بقوله :

ـ أنت أجمل مما مضى... ما رأيك أن نبدل العريس في الغد؟

ضحكت :

ـ وماذا عن صديقتك؟

رد بضحكة مماثلة :

ـ أية واحدة؟

تناولوا الشاي في الحديقة، مع البسكويت والكايك والمربى وكان كل الحديث عن الزفاف وأخبرها أن عمه، شقيق أبيه وزوجته قادمان إضافة إلى السيد جيروم وزوجته.

بدا لها من الغريب أن تسير في باحة الكنيسة مع باتريك وخاتمه في اصبعها... لم تكن قد أحست بعد أنها متزوجة المراسم عند كاتب العدل كانت رسمية، وكأنها عقد عمل، وكانت سعيدة لأن جدتها ورولاند شهداها فقط، لأنها لم تحس بأنها حقيقية مطلقاً... في منتصف باحة الكنيسة توقف واستدار إليها.

ـ أنت أجمل عروس رأيتها... والآن ستتزوج حقاً.

ـ اوه باتريك... أنا سعيدة جداً. ولا أظنني أحببت ما جرى عند كاتب العدل.

عند المدخل، كان الكاهن بالانتظار، ومن وراء كتفه رأت آنا أن جدتها محقة، فالكنيسة كانت مليئة، وأحست بالسعادة لاسناد باتريك لها. والتقط باقة زهر أخذتها منه وابتسما لبعضهما وهما يكملان الطريق نحو المذبح.

المراسم كانت بسيطة، وقصيرة، مع ذلك أحست الآن أنها فعلاً متزوجة، حين خرجا من الكنيسة، تحلق حولهما جمع غفير من أهل القرية والأصدقاء يتمنون لهما السعادة ويرمونهما بالأرز والزهور... حين عادا إلى المنزل ليستقبلا الضيوف القلائل، حيا باتريك عمه وزوجته وقدم لهما آنا.

اجتمع الجميع للعشاء حول طاولة الطعام... يتمازحون ويتضاحكون وكأن الجميع يعرف بعضه البعض منذ مدة طويلة.

حين جاء وقت الرحيل، وجلست إلى جانب باتريك. تنهدت قائلة :

ـ لقد كان زفافا رائعا... وتمتعت به جداً.

ـ وأنا كذلك. وسعيد لأن عمي وزوجته سيخرجان جدتك والسيدة فورسيل إلى العشاء. ستكون هذه نهاية رائعة ليوم رائع.

لكن ما نوع النهاية التي تتوقع ليومها؟ الولدان سيكونان في الفراش، وربما الخدم كذلك. هل سيتوقفا للعشاء على الطريق، أم يتناولانه لدى وصولهما؟

انطلقت بهما السيارة في طريق مستقيم جنوباً نحو روفر والروفر تأكل المسافات دون جهد يذكر. وعلقت آنا :

ـ هذه سيارة عظيمة.

ـ أجل... أنا بحاجة إلى سيارة قوية، لأنني أسافر كثير... ولقد استلمت لتوي سيارة اوستن جديدة من الحجم الكبير... سنجربها معاً.

ـ اوستن؟ أليست مرتفعة الثمن؟

ـ بلى... إلا أنني بحاجة إلى سيارتين، لعل واحدة تعطلت. لكن هل يسمح له دخله بهذا... كان قد قال لها أنه ورث المنزل في اورليان، لكن هناك الخدم وكلفة صيانة المنزل وجعله يستمر. وقامت لتسأله عن مدى ثراه، لكنها لم تجرؤ. كالعادة قرأ أفكارها وقال :

ـ لم نتناقش الأمور المالية بعد.

فاحمر وجهها واجفلت وقالت بلطف :

ـ لست مضطراً لهذا، إلا إذا اردت.

ـ يا فتاتي العزيزة، أنت الآن زوجتي، ويجب أن نناقش الأمور المالية. سنذهب لرؤية محاميّ في أقرب فرصة... وسأكتب وصية جديدة بالطبع.

ـ باتريك...

ـ هذا أمر معتاد... وسيشرحها لك المحامي فيما بعد... فلي مال خاص بي، إضافة إلى حصتي في الشركة والربح... سأخصص لك مصروفاً خاصاً، وأعدك أنك ستتمكنين من الحصول على ما تريدين ضمن المعقول.

- وهل أنت ثري؟

- أجل... أخشى أن أكون ثرياً. ووجدت من الأفضل أن لا أذكر هذا إلا بعد الزواج.

- ثري جداً؟

- جداً.

صمتت للحظات مفكرة :

- لو كنت أعلم، فلست واثقة أنني كنت قبلت الزواج بك.

- ولهذا اخفيت الأمر إلى أن تزوجنا... فهل تسامحيني؟

- أجل... طبعاً، وأتوقع أن يعجبني الأمر... اعني... أن يكون لي ما أصرفه.

قطع الممر بين روثر وكاليه كان سهلاً، ولم يمض وقت طويل قبل أن كانا يشقان الطريق خارج كاليه... توقفا في مدينة دوبيب على شاطىء الماش ليتناولا العشاء في فندق المدينة المطل على البحر ثم انطلقا جنوباً إلى روان والتفا حول فرساي في الطريق السريع نحو فونتنبلو ثم اورليان.

استمرت رحلتهما ما يزيد عن ثلاثمائة كيلومتر، قطعاها في ثلاث ساعات أو يزيد قليلاً واستقبلتهما ساعة كاتدرائية المدينة القديمة التي تعود إلى القرن السادس عشر، تدق أحد عشر دقة... ليصلا إلى المنزل ويشاهدا الأنوار لا زالت تنبعث من نوافذ الطابق السفلي، وما أن توقفا أمام الباب حتى انفتح ووقف بيار يستقبلهما... ووقفت آنا يدها في ذراع باتريك على الرصيف متوترة... لقد انتقلت من عالم إلى عالم آخر في وقت قصير جداً. وقال لها باتريك يقودها فوق السلم :

- أهلاً بك في بيتك.

بالفعل كان لها ترحيب إلى بيتها، وراء بيار كانت السيدة جايمس، اندرو وموريس والمربية متجمعين وأمامهم الولدين في ثياب النوم... الردهة مليئة بالزهور، ورود بيضاء، قرنفل أحمر، زنابق الوادي، زهر ليمون، الذي كانت منه باقة الزفاف الصغيرة. وقفت مسمرة لبضع لحظات، تنظر حولها، ثم قال باتريك شيئاً لبيار الذي اختفى ثم عاد يحمل باقة مماثلة، امسكتها بشيء من الدهشة ونظرت إليه فقال :

- أترين، أردت من الجميع هنا، أن يرى كم كان حفل زفافنا رائع.

لم يكن أمامها وقت لترد، فقد تقاطر عليها الجميع مهنئاً ومصافحاً متمنين لها الخير والسعادة... الولدان أولهم بعناق حارّ لوالدهم ومصافحة مهذبة لها. ثم بيار والباقي.

ودخل الجميع إلى غرفة الاستقبال، المليئة بالزهور أيضاً، وطاولة مليئة بأنواع العصير... وقالب حلوى رائع صنعته السيدة جايمس.

مرت ساعات وهم يتبادلون الحديث ويشربون ويأكلون وتقص آنا عليهم تفاصيل الحفلة، والولدان يترجمان ما تقوله للمربية والخادمة وموريس، حين دخلت غرفة نومها الجميلة واستقلت فوق السرير صاحية. تذكرت بقلق كيف أن الولدين استقبلاها ببرود. كانت تأمل أنها بعد أن تتزوج من أبيهما سيقبلان بها في العائلة. لكنها ذكرت نفسها بأن الوقت مبكر بعد.

اكتشفت بسرعة أن الزواج من باتريك يماثل تماماً الخطبة

إليه. بالرغم أنها الآن تنادي بسيدتي وتناقش السيدة جايمس معها أنواع الطعام كل صباح، إضافة إلى سؤالها عن كيفية سير العمل في المنزل.

ـ لكنني أترك الأمر لك سيدة جايمس... أترين، أنت خبيرة وأنا لم أتولى إدارة منزل من قبل. وأحب أن أتعلم.

ابتسمت السيدة لها :

ـ إنه اقتراح متعقل سيدتي... حتى ولو لم تدر السيدة منزلها بنفسها، يتوجب عليها معرفة كيفية سيره بالضبط. أما بالنسبة للطعام فعليك أن تقولي لي إذا كنت تريدين شيئاً تفضلينه.

ـ أنا آكل كل شيء... لا تنسي أنني فتاة كاملة ولسنوات طويلة اعتدت أن أكل ما يتوفر لي.

ـ لكنك هنا ستحصلين على ما يحلو لك سيدتي. ما عليك سوى القول.

ـ شكراً لك سيدة جايمس.

واحتواها بيار بحزم تحت جناحه، كان يظهر أمامها بنصائحه الجيدة حين تجد نفسها بجدة حول شيء ما أو آخر. كان يجلس إلى جانبها في السيارة الجديدة التي اشتراها لها باتريك بالرغم من احتجاجها، يروي لها أشياء عن حياة باتريك بطريقته المرحة المشوقة.

لكن المربية كانت تتجنبها، ومع أن الولدين أخذا يتناولان الغداء والشاي معها، إلا أنهما بقيا غريبين، بالرغم من أدبهما. حاولت جهدها تجاهل هذا الواقع، ولم تقل شيئاً لباتريك. مع أنها كانت مقتنعة أنها لم يحباها. أما سارة سنكلير فلم تسمع عنها شيئاً.

بالنسبة لصديقة قديمة، كانت كارهة لزيارة المنزل والتهنئة... ربما تخاصمت مع باتريك، ربما تكدرت لزواجه من آنا. كان قد مضى ثلاثة أسابيع على زواجها حين تلقيا دعوة إلى مطعم فخم في فندق فخم، وقال لها باتريك :

ـ اشتري لنفسك فستاناً جميلاً، ولا تهتمي بالثمن حتى ولو كان مبالغاً... أريدك أن تبدين رائعة.

وهكذا ذهبت إلى البلدة، ومشطت محلات الأزياء إلى أن وجدت ثوباً اعتبرت أنه سيعجب باتريك. الثمن جعلها تحس بالدوار... لكن حسب ما قاله باتريك اكملت شراء ما يناسبه من معطف ومشلح وحذاء.

لكنها لم تشاهده تلك الليلة وحين نزلت للفطار في اليوم التالي قال لها بيار أنه جاء متأخراً ثم افطر مبكراً وغادر المنزل... وفي محاولة لابهاج الولدين، ونفسها سألت :

ـ أتودان رؤية الفستان الذي اشتريته؟

التجاوب لم يكن حماسياً... فتابعت :

ـ سأدخل غرفة لعبكما اذن حين ارتديه في المساء قبل أن نخرج.

اتصل باتريك فيما بعد يقول أنه سيتأخر، وعليها أن ترتدي ملابسها أكان في المنزل أم لا. وهكذا أنهت ارتداء ثيابها وصعدت إلى غرفة الولدين، حيث كانا بانتظارها، وكذلك المربية التي وقفت عن مقعدها لتنظر إليها نظرة قاسية وتمتم بالتحية، فتقدمت آنا مترددة إلى منتصف الغرفة وسألت :

ـ هل أعجبكم فستاني؟

تمتم الأولاد بذهول، واسترسلت المربية بالفرنسية ثم قالت تيريز :

ـ هل لي أن ألمسه؟

ـ طبعاً... المسيه، إنه من الحرير... ربما يشتري لك «پاپا» فستاناً من نفس القماش... سيكون رائعاً للحفلات.

أمسكت تيريز بتنورة الفستان الواسعة :

ـ ناني لن تدعني أحصل على فستان جميل... تقول أنه مضيعة للمال على فتاة صغيرة.

نظرت آنا إلى المربية وابتسمت، مسرورة أنها لا تفهم ما يقال.

ـ أنا واثقة أننا قادرون على إقناع المربية... أترين... أنت لم تعودِ فتاة صغيرة، وتعرفين كيف تحافظين على ثيابك نظيفة وأظن أن من الأفضل أن تشاركي بالاختيار كذلك.

اتسعت ابتسامة تيريز :

ـ أوه... هل استطيع؟ ألن يمانع «پاپا».

ـ لا أظن... لكنني سأسأله والأفضل أن نسأله معاً.

ما حدث فيما بعد أصاب آنا بالذهول... فقد تقدم سيمون ليلتقط قازة زهور من على الطاولة الصغيرة، وعاد إلى منتصف الغرفة ليرمي آنا بها... لحسن الحظ أخطأ التصويب... لكن الماء انسكب على مقدمة فستانها الجميل.

وقفت جامدة كالتمثال، غير قادرة على تصديق ما حصل. تنقل نظرها من سيمون إلى تيريز إلى المربية، التي وقفت دون أن تفعل أي جهد للمساعدة... بكل تأكيد هي من أرادته أن يفعل هذا، فلماذا تتدخل؟ في نفس اللحظة قررت ما تفعل :

ـ هذا ما كنت سأرغب في فعله بنفسي... ولحسن الحظ أنه أصيب بالماء فقط... وسأجففه... سأذهب الآن لأرى ما يمكن أن أفعل.

ابتسمت لهم، وخرجت لا تزال الابتسامة مسمّرة على وجهها حتى بعد أن رد عليها سيمون بخشونة :

ـ أنا سعيد، وأتمنى أن يفسد فستانك... أتمنى أن يبقى عليه لطخة كبيرة! وأن لا تتمكني من ارتداءه... وأن يوبخك أبي...

شحب وجهه فجأة وأكمل :

ـ هل ستخبرينه؟

وقفت عند الباب تنظر إليه نظرة تفكير :

ـ لا... لن أنمّ عنك. اعرف أنك فعلت هذا عمداً، وأظن أن المربية سعيدة جداً... لكن تأكد تماماً أنني لست بالواشية سيمون.

تركت باب الغرفة مفتوحاً وأسرعت غرفتها لتتفحص الأضرار... ولم تكن سيئة، لكن يجب تجفيفها. كان لديها مجفف شعر في الحمام، فأخذت تجفف الفستان وقلبها يغوص خوفاً من أن يترك الماء عليه أثراً... ونجحت... ربما بقي أثر خفيف على حافة الفستان، لكنها وحدها من سيلاحظ هذا. وضعت مجفف الشعر مكانه في الوقت المناسب، فقد قرع باتريك الباب ودخل. وقال معلقاً على الفور :

ـ إنه فستان جميل.

كان في يده علبة مسطحة، فتحها ووضعها على طاولة

الزينة... كان داخلها عقد من الياقوت والماس، يشرق بالألوان، وضعه حول عنقها وتراجع :

- رائع جداً... ارجو أن يعجبك عزيزتي. كان لجدتي وأخذته للتنظيف... هنا قرط كذلك... هل أذناك مثقوبتان؟

هزت رأسها بنعم، روعة العقد جعلتها خرساء، وأخذت منه القرط لتضعه في أذنيها. كان من نفس الحجر الكريم بشكل اجاصي يحيط به الماس كذلك... ليكتمل بهذا مع العقد والخاتم. وغمضت :

- لست أدري ما أقول... لم أحصل على شيء رائع مثل هذا في حياتي.

ابتسم :

- كانت جدتي ستحبها عليك. إنها تناسبك تماماً... الدينا وقت لشرب القهوة قبل أن أبدل ثيابي؟

ابتسمت :

- لا... لكننا سنتناول فنجاناً... أظنني احتاج إليه... فأنا خائفة قليلاً!

وهما في غرفة الجلوس سألها :

- أهذا هو كل شيء؟

- ماذا تعني؟

- يبدو الانزعاج عليك... وأنت عادة شخص صافٍ وأظن أن شيئاً هذا المساء كدّرك.

ردت بسرعة :

- لا... أنا قلقة فقط.

- هل شاهد الولدان فستانك؟

بذلت جهدها كي لا يبدو عليها أي شيء :

- أجل... لقد كنت في غرفتهما منذ قليل... والمربية شاهدته كذلك... وترغب تيريز بفستان مثله... لكن ناني تظن أنه خسارة لفتاة صغيرة... صحيح أنها محقة، لكن ألا يمكن لتيريز أن تحصل على فستان مثله لعيد ميلادها أو عيد الميلاد؟ شيء تختاره بنفسها؟

بدت الدهشة على باتريك :

- طبعاً... لم يكن لدي مثل هذه الفكرة... أرأيت كم كنت احتاج لزوجة، والأولاد لأم. هل لديهم كل الثياب الملائمة؟

- تقريباً... لكن تعرف الأولاد... لديهم ذوق للموضة هذه الأيام.

- افعلي ما شئت عزيزتي... اشتري لهما ما يريدان... وإذا لم توافق المربية، فسأقنعها... هل هي جيدة التصرف معك؟

- اوه... بلى.

- والولدان؟

- كل شيء على ما يرام... هل ستراهما قبل ذهابنا؟

هز رأسه، واتجه رأساً إلى غرفة لعبهما، حيث اسرع الولدان إليه، وبدت المربية مضطربة... سألهما كيف أمضيا يومهما، ثم سأل عرضياً :

- من كان يرمي الزهور في الغرفة؟

احمر وجههما معاً، وحدقا به دون أن يتكلما... لكن المربية بدأت شرحاً متلعثماً... حين انهته قال باتريك :

www.elromancia.com

- حسناً، من الجيد أن لم يكن أحد في الطريق.

وأخذ يراقب ولديه، لا بد أن أحدهما قام بشيء سيء. ولا فائدة من تكرار السؤال الآن، فالمربية ستبوح بكل شيء في الوقت المناسب.

مضت الأمسية رائعة، المضيف والمضيفة كانا من النبلاء المسنين، وأبديا اللطف والسرور بالتعرف إلى آنا. طافا بها في غرفة الاستقبال المليئة بالضيوف، وبعد دقائق من الرعب، بدأت آنا تستمتع بالسهرة، وبقي باتريك معها إلى أن دخلا معاً إلى غرفة الطعام، لتجدان شريكيها على المائدة، رجلان متعلمان متوسطان في العمر وأحست بالراحة بينهما. بعد العشاء دخلت غرفة الجلوس مع النساء لتجدهن جميعاً لطيفات ودودات.

عادا إلى المنزل بصمت، ما أن دخلا حتى احضر بيار اليهما القهوة بعد أن أضاء الأنوار الخافتة في غرفة الجلوس وكانا يرتشفان القهوة حين قال لها برقّة :

- لم تكوني يوماً أجمل من الليلة آنا بيلا... أنا فخور جداً بك... لقد سببت بإثارة الجميع.

- وأنا سعيدة لرضاك.

تقدم إلى حيث تجلس وجلس قربها، وكاد الفنجان يقع من يدها حين أمسك بطرف تنورة فستانها.

- أنا واثق أن أحداً لم يلاحظ هذا... واعتقد أنني لاحظتها لأنني كنت اتفحصك بدقة... هناك لطخة خفيفة... ماء ربما؟

ابتسم لها وحاجباه مرتفعان... فوضعت فنجانها من يدها دون أن تعي أن أنفاسها تثاقلت وهي تتكلم :

- اوه... يا الله... أيمكنك حقاً رؤيتها؟ ظننتها ذهبت كلّياً... سكبت عليه بعض الماء وأنا ارتديه... أيظهر هذا كثيراً؟

- إنه لا يكاد يرى... إذن هذا هو سبب توترك هذا المساء؟

- أجل... كنت آمل أن لا يرى اللطخة أحد... وأرجو أن لا يكون الفستان قد أفسد.

- دعي السيدة جايمي تصلحه لك، إنها ساحرة في مثل هذه الأمور... هل اعجبها الفستان؟

أحست بالارتياح لزوال خطر معرفته الحقيقة وقالت :

- أجل، وكذلك بيار... إنهما عزيزان.

- سيعود رولاند بعد قليل، وسأتمكن من الراحة... بعدها سأسافر إلى بلجيكا... لكن تذكري أنك قادمة معي.

وقفت، توقف معها، وقالت له :

- سأحب هذا جداً. وهذه كانت أمسية رائعة... وشكراً لك على هذه.

ولامست العقد، فانحنى يقبّل خدها.

- لقد اهملتك بشكل مخجل... وسنذهب معاً لمقابلة المحامي في الأسبوع المقبل... ثم نزور عدة أعمام وأخوال وعمات وخالات لي... تصبحين على خير آنا بيلا!

* * *

www.elromancia.com

- ٧ -

ما الفائدة؟

تحولت الحياة إلى سعادة حقيقية خلال الأسبوع التالي... فقد أخذ باتريك يعود إلى المنزل ساعة الغداء، مرتين أو ثلاثة عاد لتناول الشاي كذلك... مرتين بعد العشاء أخرجها في سيارته السيتروان الفاخرة، إلى شرقي المدينة على طول ضفاف النهر، حيث معظم الأراضي هناك زراعية ولا يوجد فيها كثافة سيارات... ليعطيها السيارة تقودها وهو يجلس إلى جانبها دون أية كلمة يتركها تتغلب على خوفها الأولي، حين اكتشفت أن قيادة السيتروان الفرنسية الصنع هي بنفس السهولة لقيادة أية سيارة انكليزية، مع مراعاة اتجاهات السير المختلفة بين البلدين.

- أنت سائقة ماهرة... من علمك؟

- حدّاد القرية... مع أنه لم يعد يصنع حذوات الجياد كثيراً...

- وهل تركبين الخيل؟

- كنت أركب وأنا صغيرة قبل وفاة أمي وأبي... وفي أوقات متقطعة إذ كان هناك جواد بحاجة إلى تدريب.

- لدي كوخ صيفي على سفح جبل «دور» قرب مدينة «فرّان» ونحن نذهب إلى هناك أواخر الصيف... الولدان يركبان الخيل جيداً. وقد نذهب إلى هناك لبضعة أسابيع هذه السنة.

قالت بصوت مندهش :

- اوه... ألديك منزل آخر مثل هذا؟

- لا... إنه في الواقع صغير لكنني بحاجة إلى مكان واسع احتفظ به بالخيل و «البوني» للولدين.

كوخ صيفي... جياد، جوادين صغيرين «بوني»... وهو يتكلم عن كل هذا كأمر واقع... وكل منها يشكل دهشة جديدة لها. لكن دهشتها ازدادت حين زارا المحامي... رجل جاف برأس اصلع وعينان رماديتان خبيثتان. استقبلهما في مكتبه في الطابق الأعلى من مبنى قديم في قلب اورليان، وقدّم لهما الشراب وأخذ يتناقش مع باتريك بأمور مالية... ثم استدار باتريك إليها ليقول بالانكليزية :

- لقد سوينا مسألة مصروفك الخاص عزيزتي... وأظن أننا حين نزور انكلترا، يجب أن نفتش عن منزل خاص لنا نشتريه، وسأسجله باسمك، طبعاً.

- لكن لماذا أنا بحاجة إلى منزل هناك؟

- كل هذا يقع تحت شروط اتفاق الزواج.

- لكن... الولدين...؟

ابتسم بلطف :

ـ لهما منزل وحصة في الأموال.

همست :

ـ أنت ثري جداً إذن... أليس كذلك؟

هز رأسه :

ـ قلت لك هذا عزيزتي...

ـ أنت فقط أم كل عائلتك؟

ـ كل عائلتي عزيزتي، ولا حاجة لأن تقلقي.

فجأة أحست أنها غير مضطرة للقلق بعد الآن حول أي شيء، فهو سيقلق عنها، وسيرعاها... وسمعت المحامي يقرأ شيئاً بصوت مرتفع، بعدها أخذت توقع بعض الأوراق، بعودتهما إلى المنزل، طلب الولدان اهتمام أبيهما للمساعدة في الفروض المنزلية، بينما جلست آنا في غرفة الجلوس تصغي إلى تعليمات المرأة الحسنة اللطيفة التي جاء بها باتريك لتعلمها الفرنسية.

ما هي إلا بضعة أيام فيما بعد حين أعلن باتريك أنه مسافر إلى بلجيكا بعد يومين وأعاد تكرار سؤالها إذا كانت ترغب في مرافقته. وأجابته بالقبول وهي سعيدة. ثم أخبرها أن أخاه رولاند قادم للعشاء في اليوم التالي... حين سألته ما إذا كانت ميريت سترافقه... أجاب مبتسماً :

ـ لا... بل فتاته المفضلة... واعتقد أنها ستكون الأخيرة... اسمها ايلين، فتاة صغيرة الجسم ليس لها جمال يذكر يعرفها منذ سنوات... أهلها أصدقاء للعائلة... ولطالما عاملها كشقيقة صغيرة متعبة.

ووقف ليكمل :

ـ لكن الحب لا يحترم أحداً.

ـ وهل تعجبك؟

ـ أجل... إنها مناسبة جداً له.

كانت مضطرة إلى الموافقة على رأيه حين وصل رولاند برفقة إيلين في الأمسية التالية، وسألها رولاند بعد أن انتهى من عناقها :

ـ ما رأيك بها؟

ابتسمت ومدت يدها للفتاة ضاحكة :

ـ سؤال مستحيل الرد عليه :

وتأبطت ذراع ايلين مكملة :

ـ لا بد أنك ملاك لتتمكني من احتمال رولاند... تعالي إلى هنا واخبريني كيف تتمكنين من هذا.

مرت الأمسية ببهجة ومرح... حين غادر الضيفان اعلنت آنا

ـ إنه يحبها حقاً... إنها محبوبة.

ـ وهل أنت سمسارة زواج آنا بيلا؟

ـ لا... لكنني أحس بالسعادة لرؤية الناس سعداء...

ـ ألا تزالين تفكرين به آنا بيلا؟

ابتسمت :

ـ ليس دائماً... سأذهب الآن إلى الفراش. لدي الكثير من العمل غداً قبل أن نسافر.

بعد أن خلعت ملابسها وارتدت ثوب النوم، وعلى وشك الصعود إلى السرير، تذكرت أن تيريز طلبت منها أن تقول لأبيها أن يوصلها إلى المدرسة في الصباح لأن دراجتها الهوائية معطلة...

ولا شك أن باتريك الآن في مكتبته فهي لم تسمعه يصعد إلى غرفته بعد.

بكل هدوء نزلت السلم إلى الردهة واتجهت الى حيث رأت باب المكتبة مفتوحاً... مصباح القراءة القوي كان يضيء رأسه ووجهه، فتوقفت تتفرس به... كان يبدو عليه القلق والانزعاج، كل خطوط وجهه متجهمة... والحزن يلف تقاطيع وجهه... احساسها بالانقباض يطبق صدرها جعلها تتوقف جامدة... وبصعوبة كبيرة منعت نفسها من الإسراع للارتماء بين ذراعيه، تلف ذراعيها حوله، تتوسل إليه أن يمحو الحزن عن وجهه... حزنه أمر لن تتحمله... وكيف يمكن لها أن تظن أنها تحب غريغ، وهي في الواقع تحب باتريك؟

وقفت، تشبع نفسها من مشاهدته، يجلس دون أن يعي أنها تنظر إليه من الردهة المظلمة، غير قادرة على الثقة بنفسها لتكلمه حول شيء دنيوي كالدراجة...

استدارت عائدة إلى غرفتها، حيث اندست في فراشها الواسع لتستند إلى الوسائد جالسة فيه تفكر بما ستفعل... لماذا، كبداية، يبدو باتريك تعيساً هكذا؟ أهناك شيء خاطيء في عمله؟ أهو قلق على مشروع ما؟ أيفكر بسارة؟ لا... تراجعت عن الفكرة... لكنها بقيت تلوح أمام عينيها.

ساعة نزلت في الصباح أبكر من عادتها قليلاً، كانت تحية صباحه بهيجة كالعادة، دون أي أثر للقلق والحزن على وجهه... وتلقى طلبها حول إيصال تيريز بهدوء، وأراد أن يعرف ما إذا كانت جاهزة للرحيل معه بعد الغداء مباشرة وبعينين جعلهما الحب

حادتين، أخذت تدرس وجهه، تحب كل خط فيه... ومهما كان سبب حزنه ليل أمس، فقد أبعده... وأخفاه عن عينيها.

كانت جاهزة تنتظره حين عاد، وحياها كعادته... وسألها إذا كانت جاهزة للسفر بعد الغداء مباشرة، وأعلمها أنهما سيسافران بالروڤر، وسأل عما يفعله الولدين. قبل أن ترد، وصلا ليعانقاه ويرجون منه أن يأتيهما بالهدايا من بروكسيل ثم جلسا ليتناولا الطعام معه ومع آنا... ووجدتهما آنا فائقا الأدب، مستعدان للإجابة فوراً حين تتحدث إليهما، حريصان على أن تحصل على ما تريد، وفي نفس الوقت، وهي تظن أنها حصلت على ما تريد، كانا ينقلبا إلى الحديث بالفرنسية... فتبقى هكذا خارج الحديث... لكن سرعان ما لاحظ باتريك هذا.

أحست بالراحة حين انطلقت بهما السيارة... لأملها بقضاء عدة أيام مع باتريك لوحدهما، التفا حول باريس لينطلقا إلى أقرب نقطة حدود بعد أن قطعا مدينة ليل... حين عبرا الحدود كان هناك الكثير من الأسئلة عن البلاد التي يسيران خلالها... توقفا لتناول الشاي في مقهى صغير خارج مدينة كورنره في منتصف الطريق إلى بروكسيل، ثم عادا للانضمام إلى الطريق الدولية.

حين اقتربا من المدينة، لاحت لهما من بعيد قباب الكنائس الأثرية، والقصر الملكي، وفوق الجميع بدا لها برج «الاتومبوم» شاهد على عظمة الهندسة العصرية.

قال لها حين دخلا الشارع الرئيسي في القسم التجاري للمدينة...

ـ أنا ذاهب إلى مركز شركتنا هنا، إنه هناك، بإمكانك رؤيته،

المبنى المربع الكبير... ثم نتجه إلى الفندق. سأتأخر عشر دقائق... وإذا كنت سأتأخر، سأرسل من يوصل اليك رسالة.

حين عاد بعد عشر دقائق تماماً، كان برفقته رجلان توجها معه إلى السيارة، قدمهما إليها على أنهما مدير الشركة ومساعده، اللذين انحنيا يقبلان يدها يهنئانها بالزواج. بانطلاقهما مجدداً قال :

ـ نحن الآن في القسم التجاري من المدينة، وفي ميدان «غران» الشهير... في العصور الوسطى كانت تعتبر مركز المدينة التي كانت أجمل مدن أوروبا... كل التجار الأثرياء ورجال الأعمال يسكنون في القسم العلوي من المدينة... وفيها فندق المدينة الضخم الشهير المبنى في القرن الخامس عشر... لكنني أخذت فندقاً أكثر هدوءاً وأصغر حجماً على ضفاف نهر «سن».

استدار الى شارع مكتظ آخر، حيث شاهدت الحملات التجارية قبل أن يعود النهر أمام عينيها ثانية، ضفتين مليئتان بصفوف الأشجار، وفوق مياهه المعدّيات والمراكب الصغيرة تنتقل من جانب إلى آخر. وقال لها بعد أن قطعا جسراً ضخماً :

ـ نحن الآن على الضفة الأخرى للنهر، الضاحية السكنية... والفندق هناك أمام موقف السيارات المحاذي للنهر.

كان لهما غرفتان تطلان على النهر الذي بدا لها في نور الغروب المعتم جميلاً... وتدلت آنا من على الشرفة لتتفرج على البط الذي يملأ ضفاف النهر.

ـ لدى اجتماع مهم صباح الغد، بعد العشاء سأقوم بزيارة عمل. هل ستكوني على ما يرام لوحدك هنا؟ إذا أحببت اذهبي

للتسوق في الصباح... سأوصلك في طريقي، لكن ستعودي بالتاكسي... وقد لا استطيع العودة قبل السابعة.

في قلب المدينة بالذات، كان الهدوء لا يصدق، تحيط الأشجار به، من تحتها العشب الأخضر السميك يمتد حتى ضفة النهر. حيث سارا طويلاً قبل العودة إلى الفندق لتغيير ملابسهما استعداداً للعشاء.

ارتدت فستاناً جديداً، من «الكريب» الزهري موشى باللون الأحمر. وقفز قلبها حين شاهدت نظرته اليها حين انضمت إليه في مطعم الفندق، واستمر بالقفز معظم السهرة لاستمراره في نفس النظرة المعجبة خلال العشاء، ثم قال لها وهما يرقصان :

ـ اظنني محط حسد كل رجل هنا عزيزتي.

كانت مستعدة أن ترقص الليل كله بعد اطراءه هذا... لكن حين اقترحت أن يصعدا للنوم وافق معها بسرعة، حتى أنها ظننت أن نظرة الاعجاب التي كانت في عينيه مجرد خيال.

ـ أحس أنني أناني عزيزتي لاستبقائك معي هكذا... تصبحين على خير.

جاء الصباح التالي مشرقاً، فارتدت ملابسها باكراً، ودقت باب باتريك بعد نصف ساعة كان يجلس منتظراً، فقالت :

ـ اوه... آسفة...

ـ كنت اشغل نفسي... هل نمت جيداً؟

ـ وأنت؟ هل تأخرت في موعدك بالأمس؟

وأخبرها عما لديه من أعمال هذا الصباح وأن اجتماعاته تمتد إلى ما بعد الظهر... اصغت إليه باهتمام السكرتيرة المتمرسة، التي

تفهم خبايا مثل هذه الاجتماعات العملية... وتريد معرفة كل شيء لأنها تحب هذا النوع من العمل.

أوقف السيارة في الشارع الخلفي لقصر الشعب، مبنى البرلمان، وقطع الشارع معها ليدخلها في زقاق ضيق، ويبرزا منه إلى الشارع التجاري الرئيسي، والذي بدا لها كما كان يبدو منذ مئات السنين... أخذت تنتقل من جانب إلى آخر، تريد رؤية كل شيء دفعة واحدة، مع علمها أن لا وقت كثير أمام باتريك يمضيه معها، حين لاحظت أنه ينظر إلى ساعته عادت إليه مسرعة عشر دقائق معه أفضل من لا شيء. وعادت إلى جانبه مرة أخرى في السيارة... ثم عادت إلى النزول منها في شارع آخر، كله محلات حديثة... حيث ذكرها أن تستقل سيارة أجرة لتعود إلى الفندق.

أحست آنا على الفور أنها ضائعة دونه، فدخلت إلى أقرب مخزن، حيث أمضت ساعة قبل أن تجد طريقها إلى ضفة النهر لتتناول فنجان قهوة في مقهى رصيف هناك. وعادت إلى واجهات المحلات، كي تفتش على هدايا للولدين، ولجدتها، والسيدة جايمس وبيار وباقي الموظفين. وهذه مهمة ابقتها مشغولة حتى موعد الغداء، حين استدعت تاكسياً ليعود بها إلى الفندق. حيث تناولت الغداء، وخرجت تتمشى عند النهر... بعد الظهر كان الطقس رائعاً كما كان الصباح. سارت مسافة بعيدة، تلتزم الممر الضيق على الحافة ثم استدارت لتعود، خوفاً من عودة باتريك باكراً.

لكنه لم يكن قد عاد... وكانت مستعدة، مرتدية ملابس السهرة حين عاد وسألها إذا كانت قد تمتعت بيومها. وسألته

بدورها عن يومه. طوال المساء كان الحديث بينهما عادياً دون أية رومانسية، لكنها على الأقل كانت سعيدة برفقته.

مضى اليوم التالي على منوال الأول، واليوم الذي يليه... حيث قامت بالتسوق قليلاً، وبالكثير من الاستكشاف لهذه المدينة القديمة... وتنهي يومها بالتمشي معه عند المساء، في اليوم الأخير خرج معها في الصباح معلناً أن لا عمل لديه قبل الغداء حيث موعد قصير، ثم بعدها يمكنها العودة إلى بلادهما. على الفور استنبطت لائحة لهدايا تريد شراءها، وعادا إلى الفندق سيراً كما غادراه سيراً. ليتوقفا لشرب المرطبات... ثم اكملا طريقهما يتفرجان على واجهات المحلات، وفي محل صغير غالي الأثمان، شاهدت علبة موسيقية فوقها تمثال سيدة رائعة ترتدي زي القرن السابع عشر، حين شهقت بدهشة لسحرها، ادخلها باتريك حيث استمعا إلى صوت موسيقاها الفضية الساحرة قبل أن يشتريها لها... كانت غالية الثمن بشكل جنوني، حتى لرجل ثري، ولم يصغ لاحتجاجها بل قال :

- أنا لم اشترِ لك هدية منذ زواجنا عزيزتي.

شكرته، وأكملت :

- اشتريت الشوكولا للولدين... لكنني شاهدت لعبة مونوبولي اتظن أنها ستعجبهما؟

واشتريا اللعبة، مع المزيد من الحلوى والشوكولا... وعلبة سيجار من أفخر الأنواع لبيار.

تأخر باتريك في العودة من اجتماعه لساعة أو يقرب... وبهذا تناولت الغداء لوحدها... صحيح أنها لم تمضِ الكثير من

الوقت معه لكنهما حين كانا يجتمعان كانت تحب كل لحظة لهما معاً.

كانا مستعدان للرحيل... ولاحظت أن في يده علبة غريبة الشكل سألته عنها فقال أنها هدية للولدين. لكن ما أن وصلا إلى مكان وقوف السيارة، وفتح الصندوق ليضع الحمّال كل أغراضهما هناك، حتى تقدم إلى حيث تجلس، ورفع غطاء العلبة ليخرج قطيطة سياحية صغيرة وضعها في حجر آنا حيث تكدرت على الفور ونامت... وأخذت آنا تمسح وبرها الناعم الجميل :

ـ إنها ناعمة محبوبة... أتظن أن الجرو سيزر سيمانع؟

ـ لا أتصور هذا... سيكون لديه شيء يلعب به... والولدان كانا يطلبان قطة دائماً... فهي الحيوان الوحيد الذي لم يمتلكاه بعد.

رحلة العودة، بالرغم من مسافتها الطويلة، كانت سريعة جداً بالنسبة لآنا... ولم تحس إلا وهما في ضواحي أورليان... وبدأت القلق حول الولدين والمربية... مفترضة أن لا تعجبهما الهدايا التي اشترتها لهما... وأن ترفض المربية علبة الحلوى والشوكولا التي جاءت بها لها.

توقف أمام المنزل، وسرعان ما انفتح الباب وخرج الولدان إلى الرصيف، يضحكان وينادیانهما. ووقفت آنا تنتظر بحيرة ما سيقولانه بعد الإثارة الأولى التي سببتها القطيطة... في الردهة وقفت السيدة جايمس تحييهما، وخرج بيار ليدخل الحقائب. وصاح الولدان باهتياج :

ـ ماذا سنسمي القطة؟

صاح سيمون لوحده هذه المرة :

ـ سنسميه ساتون!

صعد الولدان ليشاهدا العلبة الموسيقية التي اشتراها باتريك حيث وضعتها آنا على طاولة صغيرة قرب النافذة، واستمعا إلى الموسيقى بصمت مهذب وسألها سيمون :

ـ هل اشتراها «بابا» لك؟

ردت بحذر :

ـ أجل... شاهدناها في واجهة محل، ووجدتها فاتنة، فاشتراها لي... سأعتني بها دائماً، إنها جميلة!

كان العشاء مناسبة للاحتفال بعودتهما، بعد أن بقي الولدان صاحيان لحضوره. وجرى الحديث مطولاً عن ساتون، النائم الآن بهدوء في دفء غرفة اللعب مع سيزر، المرتاب به قليلاً، لكن بودية كافية. وهكذا صعد الولدان الى النوم بحذر كي لا يوقظاهما، شاكرين آنا بأدب على هداياها. لكن المربية كانت في إجازة، لذا فإنها لن تستلم هديتها من الحلوى قبل الغد. وتنهدت آنا بارتياح... يبدو أن كل شيء سيسير على ما يرام، وقلقها لم يكن له مبرر...

التفت باتريك إليها يقول شارد الذهن :

ـ عليك أن تعذريني عزيزتي... لدي الكثير من البريد لاقرأه، وأريد مراجعة بعض التقارير قبل الغد... وكانت هذه فرصة راحة جيدة... يجب أن نكررها دائماً.

دخل مكتبته تاركاً الباب مفتوحاً، وسمعته يرفع سماعة ليطلب رقماً ثم يقول : «سارة»؟ ولم تعا تفهم شيئاً من الحديث الدائر بينهما.

حين دخلت غرفتها، كان المصباح الصغير الى جانب السرير مضاءً، فخلعت ثيابها، وارتدت ثوب النوم... كم تختلف هذه الغرفة الأنيقة الواسعة عن غرفتها الصغيرة في منزل جدتها... ستتصل بها في الصباح، وتخبرها عن رحلتها... وأن باتريك قد اقترح أن تدعوها للإقامة بضعة أيام معهما.

فجأة جمدت في مكانها... وتوقف نظرها عند الطاولة الصغيرة قرب النافذة... لم تكن العلبة الموسيقية هناك... بل كانت على الأرض... محطمة، ملتوية، وكأن شخصاً داسها بقدميه.

التقطتها ببطء، لتكتشف أنها أصبحت حطاماً لا فائدة من اصلاحه... فوضعتها على الطاولة واتجهت إلى النافذة تقفل الستائر، ودخلت الخادمة لوسي لتسأل ما إذا كانت السيدة تريد شيئاً قبل ذهابها إلى النوم، فأدارت آنا وجهها الحزين نحوها. وسألتها بفرنسية مكسورة عما إذا كانت قد وجدت العلبة الموسيقية على الأرض حين وضبت الغرفة... لكن الفتاة كانت تجهل كل شيء... الوقت متأخر لسؤال الولدين، وعلى الأرجح مضيعة للوقت. ولا يجب أن تخبر باتريك لأنه سيحاول الوصول إلى أصل المشكلة، وهذا لن يفيد أحداً... والأكثر أنه لن يفيدها هي.

دخلت الفراش، وأسندت ظهرها إلى الوسائد جالسة. ولأول مرة منذ زمن بعيد، سمحت لنفسها بالبكاء... أولاً سارة المنتظرة بفارغ الصبر عودة باتريك... والآن، الهدية الوحيدة التي اشتراها زوجها لها، محطمة إلى قطع صغيرة... فما فائدة منزل جميل فخم والمال يملأ حقيبتها، مع أنها لم تتزوج لهذا؟ ولم تتزوج لأنها تحب

باتريك كذلك، لكنها الآن واقعة رأساً على عقب في حبه... لكن ما فائدة كل هذا بوجود سارة؟ وبكت حتى جفت دموعها ونامت.

* * *

www.elromancia.com

- ٨ -

السقوط في الظلام

تمنت آنا صباحاً سعيداً للولدين حين وصلا الى المائدة لتتناول الإفطار. محاولة أن لا تنظر الى الإرتباك في عيونهما الزرقاء... لكن حين كان أبوهما ينشغل بشيء ما كانا يحدقان بها مشدوهين... وتساءلت عما سيفعلان تاليا لو أنها كانت شريرة يكفي لتقول لوالدهما عما حلّ بالعلبة الموسيقية.

أكملت الفطار بهدوء. وأجابت على أسئلة باتريك العادية. ثم قرأت الرسائل التي وصلتها. وقرأ هو رسائله، كانت على وشك الإنتهاء حين فاجأها باتريك بسؤال :

- كيف حال سيدتك الراقصة؟ هل شاهدها الولدان؟

- ربما كان يجب أن نشتري لهما واحدة مثلها بدلاً من القطيطة.

ضحك باتريك مقترحاً أن يحضر بيار العلبة الموسيقية ليريها للولدين... لكن آنا قالت بسرعة وصوت مرتفع وجريء دون أن تنظر الى الولدين :

- لقد إنكسرت. كنت... سأقول لك... لقد أوقعتها مساء الأمس... كنت حمقاء بما يكفي لأن أضعها على الطاولة الصغيرة قرب النافذة، وأظن الريح تلاعب بالستائر و...

كان باتريك يجلس متراجعاً في كرسيه يراقبها. حاجباه مرتفعان، ولم يعلق على كلامها... بل قال بهدوء :

- حسناً... فلنلق نظرة عليها، علني أجد من يصلحها. أحضرها يا بيار من على الطاولة الصغيرة في غرفة المدام... أرجوك.

كانت آنا تحاول أن تقرر ماذا تفعل... بعد أن أدركت متأخرة أنهاكذبت كذبتين، في وقت كان يمكنها أن تكتفي بواحدة. تعابير وجه باتريك تغيرت تماماً حين رفع بيار العلبة المحطمة أمامه. إلتقطها... تفحصها بعناية، ثم أعادوها. وقال بصوت كله تفكير :

- لا أستطيع وصفها بأنها مكسورة... بل أتصور أن احدا داسها بقدميه... ولعدة مرات.

تطلع الى الولدين... الجالسين لا ينبتان بكلمة واحدة، يحدقان به. ولاحظت آنا أنهما لا ينويان قول شيء. والأكثر، أنها تشك في أن يسألهما باتريك عما إذا كانا يعرفان شيئاً. فهذه ليست طريقته... فهو سينتظر بصبر كبير الى أن يخبراه ما يعرفان... حسناً... ثلاثة جهات يمكنهم لعب هذه اللعبة... لذلك حين سألها عن رأيها بالأمر أجابت على الفور تنظر اليه متحدية وهي تبتسم :

- لست أدري... وأنا آسفة لعدم إحتراسي... ولطف كبير منك أن تشتريها لي.

- بكيت لأجلها آنا... أليس كذلك؟

نسيت وجود الولدين وما فعلاه، وقالت بتعاسة :

- أجل... لقد بكيت. أترى... كانت تعني لي الكثير.

نظر اليها بقسوة، ثم الى ساعته :

- حسناً... يجب أن أذهب الآن.

إلتقط الحطام من أمامه ووقف :

- سأعود في المساء، وربما وقت الشاي يا عزيزتي.

حين اقفل الباب الخارجي خلفه، وقفت آنا وسألت :

- هل أنتما جاهزان؟ حان وقت ذهابكما الى المدرسة. أتريدان أن أفعل شيئاً لساتون في غيابكما؟

وقفا ينظران أليها، وهزّ سيمون رأسه :

- كاتي قالت إنها ستطعمه.

إبتسمت :

- عظيم... سأهتم بسيزر كالعادة... أراكما بعد المدرسة.

خرجا من الغرفة، والذنب يبدو على كل خطوة يخطونها، ولولا أنها كانت حزينة، لضحكت... فهما يعرفان أنها تعرف أن لهما يدا تحطيم العلبة... لا بدّ أنهما يكرهانها... وفكرت بالمستقبل... لكن عقلها تغلب على عاطفتها! فليهتم المستقبل بنفسه حين يأتي الوقت... أليست متزوجة من باتريك، أو ليس هذا الرجل الوحيد في الدنيا الثري اصبحت تهتم به الآن؟

إتجهت الى المطبخ، واصغت بأهتمام الى السيدة جايمس تسألها عن ما ستقدمه من طعام... وسألتها السيدة :

- هل ستكون حفلة خطوبة لقدوم السيد رولاند والآنسة ايلين؟

- لست واثقة تماما... لكن فلنأمل بهذا... لكن لا تقولي شيئاً...

- لا شيء إطلاقاً سيدتي... مع أنني واثقة أننا سنفاجيء بالخبر السعيد... وسيكون من المبهج وجود بضع مواليد جدد في العائلة.

نظرت الى آنا نظرة ذات مغزى، فإحمر وجهها... لا يمكنها أن تكون موافقة على شيء أكثر. شقيق أو شقيقة لسيمون وتيريز وتنهدت... يا للخسارة... إنها مضطرة لأن تراقب رولاند وايلين ينتجان عائلة جديدة... ستتعلم بكل بساطة أن تكون العمة الرائعة... وتجهم وجهها... فسألتها السيدة جايمس :

- أتوافقين على أن أطبخ البط في الفرن سيدتي؟

أعادت آنا إهتمامها الى العشاء وقالت :

- أوه... أجل. وكنت أفكر بأن تضعي لنا بعض البسكويت مع العصير... إنها رائعة من صنعك.

وكانت حفلة العشاء رائعة... رولاند في قمة سعادته لأن ايلين وافقت على الزواج منه... وستكون «سلفة» حبيبة لآنا. ولأنها الليلة سعيدة، بدت أجمل من المعتاد واللون الأحمر يصبغ وجنتيها، وهي مرتدية فستاناً يماثل لون عينيها الزرقاوين.

بعد العشاء، والجميع جلوس لمناقشة ترتيبات الزفاف مع شرب القهوة قالت ايلين بصوت واضح :

- أظن أنني بسببك آنا سأتزوج رولاند... رؤية سعادتك مع

باتريك، دفعني الى الإيمان بأنك أذا كنت راضية عن الزواج... فسأكون راضية مثلك... صحيح أنهما ليسا متشابهين لكنهما أخوين... إذا فهمت ما أعني؟ أتحسين بالغيرة؟

لم تلاحظا أن الرجلان يستمعان اليهما، وردت آنا :

- ولماذا؟

حسناً... إنه إفتراض... على أي حال سنكون كشقيقتين. اليس كذلك؟... رولاند كان في حياته الكثير من الفتيات لكن لم يعد له الآن سواي... وبالطبع كان لباتريك الكثير من الصديقات... لكن لم يكن لهن أهمية، فقط سارة... أغضبتِ مني لحديثي هكذا؟

- بالطبع لا.

كانت بالطبع تكذب، فالغيرة في تلك اللحظة كانت تتآكلها بعنف حتى إضطرت الى التنفس بعمق لتهديء نفسها... وقال باتريك بهدوء :

- لن يكون لك سبب للغيرة على رولاند يا إيرين... كما تعرف آنا تماماً أن لا سبب يدعوها للغيرة عليّ. كنا نسترق السمع عليكما دون خجل... وأنا مسرور لأنني وآنا أثرنا عليكما.

ودعا ضيفيهما ووقفا في هدوء وبرودة المساء.

- إنها فتاة لطيفة... وسيكونان سعيدان معاً.

وضع باتريك ذراعه حول كتفيها.

- أجل... ولمَ لا؟ هذا فستان جميل ترتديه.

- أصبح عتيقاً الآن... وابديت إعجابك به قبلاً... فأردت أن يكون كل شيء مبهجاً لايلين...

بدا أنه فهم معنى تلميحها، فتنهد وأزال ذراعه عن كتفيها.

- أجل... أفهم هذا... يجب أن أذهب باكراً الى المكتب في الغد.

دخلت الى المنزل على الفور... حياتها أصبحت هكذا دائماً كلما كانا لوحدهما معاً، عليه إيجاد عذر مقنع لتركها... وسألته وهي تسير أمامه نحو السلم :

- ستعود للغداء؟

- لا... يمكن وقت الشاي...

قاطعته بسرعة وحدة :

- تصبح على خير إذن.

ركضت تصعد السلم دون أن تنظر اليه. وكانت تجلس أمام طاولة الزينة تسرح شعرها حين شاهدت العلبة الموسيقية على الطاولة أمام النافذة... وحدقت بها غير مصدقة.

حين إلتقطتها لم تكن واثقة انها نفسها وقد أصلحت أم أنها قطعة مماثلة لها... ولكن ماذا يهم... فلقد فعل باتريك هذا لأجلها... ولا بد أنه عرف انها حزنت عليها.

طارت راكضة من غرفتها لتدق باب غرفته والعلبة الرقيقة بين يديها. كان يقف وسط غرفته يخلع ربطة عنقه... وسألها دون دهشة :

- نعم عزيزتي؟

- باتريك... سيدتي الراقصة الصغيرة... لقد وجدتها... انت أصلحتها لي... أليس كذلك؟

- أجل... هناك عجوز خبير في مثل هذه الأمور يصلّح لي

عادة أشياء كهذه... وهوبارع في إصلاح ما لا يمكن إصلاحه... ولقد أمضى يومه كله يصلحها.

كبحت دموعها، وقالت بصوت متقطع :

- أوه باتريك... كيف يمكن لي أن أشكرك أبداً؟ أنت لا تدري... بعد أستهتاري... ما كان يجب أن تزعج نفسك.

ردّ متعمداً :

- بأمكانك عرضها على الولدين الآن.

- أجل... طبعاً... سيحبانها... شكراً لك باتريك... أنا فعلاً حزنت حين إنكسرت.

تقدم منها ليأخذ العلبة الموسيقية ويضعها على طاولة.

- أجل... أعرف هذا. وهو أمر مشجع.

جذبها اليه بقوة وقبّل خدها. ثم أعاد العلبة لها وفتح الباب :

- نامي جيداً.

في الفراش تسائلت لَمَ يجد الأمر مشجعاً؟ ولَمَ قبّلها مرات قبل هذا، وكانت قبلاته رسمية باردة... تختلف عن هذه المرة. ربما أحس هذه المرة بالشفقة عليها... ادارت العلبة الموسيقية وأخذت تستمع الى رنينها الرقيق... يجب أن تديرها للولدين صباحاً وأن لا تكشف عن أحاسيسها... أما الآن فلا أحد يراقبها، ولا عين من عيون عائلة دوبارت تحدق فيها.

في الصباح وضعت العلبة قربها على الطاولة دون أن تنظر الى وجهيهما المشدوهين، وأدارتها، متحدثة عنها طوال الوقت... حين إنتهى العزف سألتهما عن ساتون وسيزر، وذكرتهما بدرس

السباحة ذلك الصباح. وأن السماء تكاد تمطر. وبهذا تجنبت تقديم خدّها لقبلة باتريك الصباحية، فهي لن تتمكن من إحتمالها.

أمضت نهارها في أعمال روتينية، ثم ساعة تتخابط في لفظ جمل بسيطة بالفرنسية، ثم شكرت معلمتها مودعة وعادت الى غرفة الجلوس... ساعتها فقط لاحظت أنها لم ترَ بيار طوال الوقت، فإتجهت الى المطبخ لتقول لها السيدة جايمس :

- لماذا جئت بنفسك سيدتي، كان عليك أن تقرعي الجرس هل هناك شيء تريدينه؟

- جئت أسأل عن بيار... لم أشاهده حتى الآن... أهو مريض؟

- إنه في إجازة سيدتي، أهناك شيء تفعله لك لوسي بدلاً منه؟

إلتقطت حفنة لوز وأخذت تمضغها.

- لا... شكراً لك.

- لا بد أنه نسي أن يقول لك.

وقت الغداء أخبرها الولدان أنهما لا يجدان ساتون... ونظرا اليها نظرات إتهام، عرفت منها أنهما يفترضان أن تكون قد خبأته عقاباً لهما على تحطيم العلبة الموسيقية، وردّت عليهما بهدوء متعمد :

- لا... لم آخذه... كان في غرفة اللعب هذا الصباح، ولم أدخل الى هناك منذ ذلك الوقت... وبالطبع أنا أعرف أنكما حطمتما علبة الموسيقى، وأتوقع أن يكون لكما العذر لهذا، لكنني لن أخبر أحداً. ولا أنوي الإنتقام... وبكل تأكيد ليس من قطيطة صغيرة. والآن، من شاهده آخر مرة؟ أكان لوحده مدة طويلة؟ هل ترك أحدكما الباب مفتوحاً؟

ـ قالت كاتي أنه كان نائماً، وإضطرت للنزول الى المطبخ...
حين عادت لا تذكر إذا كان هناك أم لا.

ـ على الأرجح هو مختبىء في أحد الخزائن... إسمعا... أذا إستعجلنا في تناول الغداء، يبقى معنا نصف ساعة قبل عودتكما الى المدرسة، سنفتش المنزل غرفة غرفة... وربما ستساعدنا المربية.

نظرا اليها بريبة، فاضافت بلطف :

ـ أنظرا... أنا الى جانبكما.

وكافئاها بالسرعة في تناول الطعام... لكن البحث لم يكشف شيئاً... ووجدا الولدان كرة فقداها منذ أكثر من شهر، وزوجاً من القفازات الصوفية لتيريز. وما أن حلّ وقت ذهابهما الى المدرسة حتى كانا قد فتشوا كل شيء في المنزل، وبقي المطبخ وغرفة الجلوس ومكتبة أبيهما، وقالت آنا أنها ستبحث هناك ثم تبحث في الحديقة.

قبل خروجها الى الحديقة، قررت أن تصعد الى غرفة اللعب لتتأكد أنه لم يعد بعد، وتقدمت الى النافذة لتنظر بتعاسة الى المطر المنهمر في الخارج... حركة خفيفة تكاد لا تظهر فوق شجرة الدردار الكبيرة خارج النافذة، جعلت آنا تفتحها وتنظر الى الخارج. لكنها كانت شبه واثقة أنها سمعت مواءً خفيفاً. من المحتمل جداً أن تكون القطيطة قد تسلقت النافذة وقفزت الى الشجرة القريبة... وأخذت تفكر إذا كانت تجروء أن تفعل الشيء نفسه، لكنها تراجعت فهي لم تتسلق شجرة منذ سنوات بعيدة، وهذا شيء قد لا تتمتع الآن بفعله. لكن بيار غير موجود، ولوسي

ذهبت الى منزلها، أما السيدة جايمس فهي بالكاد قادرة على...

تمكنت من أن تدل المربية، والتي للمرة الأولى لم تكن عابسة في وجهها. الى مكان القطيطة... ثم نزلت لتخرج الى تحت الشجرة مرتدية البنطلون، ومشلحاً يغطي شعرها، وقفازاً، كي لا يكون ساتون خائفاً ممن سينقذه واخبرت السيدة جايمس قبل أن تخرج.

وجدت سلماً خشبياً قصيراً حملته الى الشجرة لتجد أنه يصل الى منتصفها فقط. لكنها سحبت نفسها الى الغصن الأعلى... وإستغرق هذا عدة محاولات... وإستطاعت رؤية ساتون متمسكاً بغصن صغير فوق رأسها، فروه مبلل، عيناه واسعتان وهي مضطرة للتسلق بعد لتصل اليه.

أخيراً تمكنت من الأمساك به... لكن كيف السبيل الى النزول الآن؟ نظرت الى تحت فأحست بالذعر واشاحت نظرها... إنها ستحتاج الى كلتا يديها لتنزل، فماذا ستفعل بالقطيطة؟ من فوقها كانت الأوراق والغصون تسد الرؤيا على المربية لتراها... ولن يسمع أحد صراخها لو أن المربية أقفلت النافذة... مع ذلك صاحت... وبالطبع لم يسمعها أحد... لكنها كادت تقع من على الغصن حين صاح بها باتريك من الأسفل.

ـ ماذا بحق الله تفعلين فوق؟

ـ ساتون معي... ولقد أنقذته، لكنني لا أعرف كيف سانزل.

سمعت ما بدا لها ضحك راعد.

ـ إبقِ حيث أنتِ، أنا قادم اليك.

كانت لا تزال في حيرة حين أخذ منها ساتون وضعه في جيب معطفه، وقال :

- تمسكي بهذا الغصن جيداً وإنزلقي الى الاسفل... لن تقعي فأنا خلفك تماماً.

كادت تصيح به سخطاً لأوامره الصارمة في وقت تحس فيه بالرعب الشديد، لكنها شدّت على أسنانها وفعلت ما قال لها، وبعد ما بدا لها عمراً، سمعته يقول :

- لقد وصلت السلم، مدي قدمك اليه... لن تقعي... فأنا أقف تحتك الآن ويداي ممدوتان لك... هل أغمضت عينيك؟

- لا... وليتني فعلت.

ثم قفزت لتقع تماماً بين ذراعيه.

لم يتركها على الفور، وبقيت متمسكة به، تسمع خفقات قلبه المنتظمة، ثم مواء ساتون...

بعد دقائق تركها، وكانت تتمنى أن تبقى هكذا الى الأبد، وتحت المطر، أمسك بها يستعجلها للدخول عبر باب المطبخ لتلتقي بالسيدة جايمس والمربية، واعطى القط الصغير للمربية مع تعليمات لتجفيفه وإطعامه، ثم إستدار الى آنا... فقالت غاضبة :

- حسناً... أعرف أنني أبدو فظيعة.

ضحك.

- بل أعتقد أنك تبدين جميلة.

وقبّل وجهها المبلل.

- إركضي الآن الى الحمام، ثم إنزلي لتناول الشاي معي في المكتبة. لدي عمل بالطبع، لكنني أقدر أن أعمل وأشرب الشاي في نفس الوقت.

كانت السيدة جايمس تخرج من المكتبة حين أنزلت آنا من على

السلم... فدقت الباب دقاً خفيفاً ودخلت لتجد باتريك وراء مكتبته وقد غير ملابسه المبلله وأمامه كومة ملفات واوراق... قبالته كانت تجلس ساره، تتحدث بصوت منخفض ملّح. فتوقفت آنا. وقد إجتاحتها موجة إحباط :

- آسفة، لم أكن أعرف أنك مشغول.

وأخذت تتراجع... فليتناولا الشاي وحدهما. وإستدارت لتركض بجنون الى غرفة اللعب لتجلس مع المربية والقط... كانت لا زالت هناك حين عاد الولدان... وبقيت على الأرض حيث هي تلاعبه بينما إنطلقت المربية بكلام مطول للولدين. وتقدم سيمون منها أخيراً.

- كاتي تقول إنك أنقذت ساتون من على الشجرة... شكراً لك.

وقفت الى قدميها... إنها هنا كذلك غير مرغوب فيها :

- لا بأس في هذا... أنا مسرورة لسلامته... هل ستتناولان الشاي هنا؟ والدكما يعمل في مكتبه.

ردّت تيريز :

- أجل تعرف، ذهبنا لرؤيته، معه سارة كذلك.

في غرفتها جلست تتساءل ما تفعل، أتنزل الى غرفة الجلوس وتتناول الشاي لوحدها؟ أتشاركه مع الولدين؟

وقفت ببطء، أحضرت حقيبة يدها ونزلت المطبخ لتقول للسيدة جايمس :

- سأخرج قليلاً... أريد شراء قماش للتطريز.

وسارت قدر إستطاعتها حين عادت، إستخدمت التاكسي لتصل وقت العشاء تماماً... سعدت فوراً لدى الولدين قبل

النوم. ثم عادت الى غرفة الجلوس حيث كان باتريك يقف ينظر من النافذة، وتقدم نحوها حين دخلت :

ـ لماذا لم تشركيني الشاي؟

ـ كانت سارة تشاركك فيه.

ـ هذا صحيح... لكن الشاي كان يكفي لثلاثتنا.

ـ إثنان صحبة، أما الثالث فمتطفل.

ـ في هذه الحالة سارة هي الثالثة.

ردّت بحدة :

ـ لا... إنها ليست هكذا... بل أنا... على كل حال هذا ما كنت أتوقعه!

رأت وجهه يتغير... وسألها بصوت بارد!

ـ أتنوين الشجار؟

صاحت بإهتياج :

ـ ولِمَ لا؟ على الأقل قد تلاحظ وجودي هكذا...

إرتدّت نحو الباب واكملت وهي تصفقه :

ـ لست جائعة... سأذهب الى النوم.

وبكت على فراشها حتى نامت... كان قد خرج حين إستفاقت صباحاً... الولدان كانا لوحدهما على مائدة الفطار فتمنيا لها صباحاً سعيداً، ونظرا الى وجهها المجهد بأستغراب. شربت قهوتها، وودعتهما الى المدرسة، ثم خرجت الى الحديقة. كان الطقس جميلاً والمكان هاديء، وأحست أنها أفضل حالاً بعد فترة، فعادت تبحث عن السيدة جايمس. والكلبان يتقافزان من حولها... ما إن فتحت الباب حتى أخذا بالنباح وقفزا الى الداخل

حيث كان باتريك جالساً على حافة طاولة رخامية مثبتة في الجدار... فأبعدهما عنه بلطف ووقف... فقالت له مرتبكة :

ـ مرحبا... أنسيت شيئاً هنا؟

ـ لا... بل وجدت نفسي مع ساعتين من الفراغ... هل نتناول القهوة في الحديقة؟

ـ أجل... إنه يوم جميل... كنت أتمشى لتوي مع الكلبين...

ما هذا الكلام السخيف أنها تفعل هذا كل يوم وهو يعرف...

سمعت صوتاً خلفها فإستدارت، وإنفتح الباب الأمامي ليدخل بيار ثم يتراجع الى الخلف فاتحاً الباب الى آخره ليسمح لشخص أن يدخل وصرخت آنا بجنون :

ـ جدتي!

ورمت بنفسها بين أحضان قريبتها الوحيدة.

ـ أجل يا عزيزتي... هذا أنا... باتريك أرسل بيار ليأتي بي لقضاء بضعة أيام معكما.

إلتفتت آنا تنظر اليه :

ـ باتريك... كم أنت لطيف! لا أستطيع شكرك... قالت السيدة جايمس أن بيار في عطلة.

ردّ بيار مبتهجاً :

ـ هذا صحيح، يمكنك القول إنني كنت في إجازة... وفي جنح الظلام، كما تقول القصة، تسللت لأخطف الجدة... وها نحن هنا سالمين.

ـ أوه بيار!... باتريك أنت لم تقل كلمة عن الموضوع.

www.elromancia.com

إبتسم وكلم السيدة نيكولز :

ـ هل لنا أن نتناول القهوة في الحديقة أولاً... ثم تأخذك آنا الى غرفتك.

عاد باتريك الى مكتبه في المدينة بعد قليل، قائلاً إنه لن يعود قبل المساء.

ـ بإمكاني البحث في كل الشائعات والأقاويل التي فاتتكما.

في الغرفة التي خصصتها السيدة جايمس للجدة جلستا تتحدثان حدثتها آنا عن كل شيء ما عدا باتريك... أخيراً تراجعت الجدة في مقعدها وقالت برزانة :

ـ والآن عزيزتي... أخبريني الحقيقة كلها.

فإنفجرت آنا بالبكاء، شيء لم تكن تنوي أن تفعله وقالت منتحبه :

ـ أوه يا جدتي... أنا بائسة في حبه... فهناك تلك المرأة... سارة...

وحدثتها عنها مطولاً، لكن الجدة قالت تزجرها :

ـ لكنك زوجته عزيزتي.

ـ أعلم... لكن هناك الولدان.

وشرحت لها ما حصل وأكملت.

ـ إنهما يكرهاني... وحاولت المستحيل جدتي... إنهما محبوبان وولدا باتريك، لذلك أحبهما...

ـ لكن الحب اقوى من أي شيء آخر عزيزتي، ضعي هذا في ذهنك.

إستمرت الزيارة يومين، لأن الجدة قالت أنها لا تستطيع ترك

السيدة فورسيل لوحدها طويلاً... وأحب الأولاد العجوز، وحين إقترحت عليهما قضاء بضعة أسابيع معها خلال عطلتهما قبلا الدعوة بحماس، بنفس الحماس الذي طلب فيه باتريك من جدة زوجته أن تقضي إجازة الميلاد معهما معها السيدة فورسيل.

ليلة رحيلها أقاما لها حفلة عشاء وداعية حضرها رولاند وايلين، وإقترح باتريك دعوة سارة، فلم تجد آنا بدّاً من القبول. ومضت السهرة متوترة بالنسبة لها، لكنها إعتبرت نفسها قد تصرفت جيداً، حتى حين قبّلت سارة باتريك محيية وكذلك حين ودعته، وكانت أفضل حالاً من ايلين التي بدت قلقة ومحرجة.

أحست بالضياع والوحدة بعد سفر جدتها خاصة بعد أن سافر باتريك الى باريس في نفس اليوم، وسيقضي الليل هناك كما قال لها... فصاحت به بصوت مرتفع :

ـ بالطبع ستكون سارة معك.

ظهر الغضب على وجهه الهادىء عادة :

ـ لا... لكن حين تلمحين هكذا تلميحات... يتخيل إلي أن أفعل!

خرجت للتمشي مع الكلبين بعد الظهر، وأطالت المدة أكثر من المعتاد... لا بدّ أن الولدان الآن قد تناولا الشاي، وهذا أفضل لها. ستتناول الشاي لوحدها في غرفة الجلوس... لكن حين وصلت، وصعدت الى الطابق الأعلى، لتسأل المربية عنهما تلقت نظرة مشدوهة وسيلا من الفرنسية لم تفهمه، فنزلت لتسأل السيدة جايمس، لكنها لم تكن تعرف شيئاً بل علقت :

www.elromancia.com

- والدهما غائب. والمربية تحبهما وتدللهما، وهما يتلاعبان بهما كالخاتم في الإصبع.

حين دخلت غرفتها، وجدت مغلفاً قرب علبة الموسيقى، فأسرعت اليه تفتحه كتابة سيمون للإنكليزية كانت غريبة، لكن مفهومة... لقد ذهب مع أخته لإستكشاف كوخ المربية القديم حيث كانت تسكن... وفي لمح البصر كانت قد أعادت إرتداء معطفها وخرجت من المنزل بعد أن تذكرت أن سيمون كان يكلمها وقت الغداء عن كوخ المربية القديم، لكنها لم تلقِ له بالاً، ولا تذكر الآن إسم الشارع أو المكان... ولم تكن تدري لماذا تحس بالرعب... صحيح أنهما غائبان منذ ساعتين، وهذا وقت طويل... لكنها كذلك عرفت منهما أن باتريك حرّم عليها الذهاب الى هناك، وربما لأن المكان غير آمن.

إضطرت الى التركيز حتى تذكرت أسم الشارع، وسألت عدة أشخاص قبل أن تصل اليه لتجد شارعاً ضيقاً قديماً معظم منازله أكواخ آيلة للسقوط، إذا لم تكن ساقطة بالفعل... كان سيمون قد قال أن الكوخ يقع عند منعطف... وبكل تأكيد ها هو أمامها نوافذه محكمة الإغلاق، مع أن معظم الواحها منزوعة الآن. تقدمت نحو الباب لتجد المفتاح فيه، ودفعته لينفتح... أمسكته ليبقى مفتوحاً وغادرت بصوت تمنت أن يكون طبيعياً ثم كادت تقفز خوفاً حين سمعت سيمون يرد. كان صوته يرتجف ويبدو عميقاً، وإتضح لها السبب بسرعة حين قال لها أنهما وقعا الى القبو تحت المطبخ... تسمرت في مكانها وهي تسأل :

- هل أصبتما بأذى؟

صيحاتهما كانت مطمئنة... فقالت :

- إصمدا إذن، سأحاول شدكما الى فوق.

ركضت على ركبتيها تزحف نحو الفتحة وتنظر الى تحت حيث لمحت الوجهين الصغيرين... لو تجد كرسياً أو شيئاً مرتفعاً تمرره لهما فيقفا عليه...

إنقفل الباب خلفها فجأة ليتركها في ظلام دامس. لم يبقَ أمامها سوى ظهور الجرذان... لكنها سألت بكل الهدوء الذي تمكنت أن تجمعه ما إذا كان سيمون يعرف مكان الثقاب الذي أوقعه ساعة سقط في الحفرة. وأخذت تزحف الى منتصف المسافة كما قال لها، فوق الأرض القذرة الى أن وجدتها. وإستخدمت كل ما في العلبة تقريباً قبل أن تجد كرسياً مكسوراً في الزاوية مؤكداً أنهما سيكونان على ما يرام الى أن تعود... في الواقع لم يكن أمامها شيء آخر تفعله، وهي هنا تضيع وقتها سدى.

وصلت الباب الخارجي لتجده موصداً، والمفتاح من الخارج... بعد عدة محاولات لخلعه أو تحطيمه إضطرت للإعتراف بعجزها والنافذة الوحيدة كانت موصدة من الخارج بألواح خشبية... فعادت ببطء لتجد الولدين.

- كنت غبية لتركي المفتاح في الخارج... لكن لعل من سيأتي يتمكن من الدخول.

سألتها تيريز باكية :

- ومن سيأتي؟

- ربما أبوكما.

- لكنه مسافر.

ـ قد يعود الليلة... سأنزل اليكما... من الأفضل أن نبقى معاً.

لم يعد معها أعواد ثقاب... فزحفت بحذر حتى وصلت الى ما كان يوماً سلماً للقبو، وتدلت منه ثم قالت خائفة لكن بصوت هادىء :

ـ سيمون... أيمكن أن تلمس قدماي لأعرف مكاني قبل أن أقفز.

لحظات وأحست بأصابعه تلمس ساقها، ثم تراجع عنها فقفزت.

ـ تعاليا الى هنا.

وصلها الولدان فأخذت تتحسسهما لتطمئن، ثم أخذت تتفحص المكان شبراً شبراً... داست على كومات من الحجارة، ووجدت نفسها تغوص حتى الكاحلين في الماء... فتراجعت خوفا من أن تدوس على مكان خاطىء تتهاوى بعدها الحجارة عليها. وعادت الى الولدين تقول بهدوء :

ـ حسناً... ها نحن هنا ومن الأفضل أن لا نتحرك... فالمكان خطر وكله ماء... عما ستتحدث لنقطع الوقت؟

سألت تيريز :

ـ هل سيأتي أبي؟

ـ لست أدري عزيزتي، لكنني واثقة أنه سيأتي.

تغير سيمون وهو يقول بوّد ظاهر :

ـ أظنه سيأتي... إنها غلطتنا آنا... جئنا الى هنا عمداً... أردناك أن تبحثي عنا هنا لنحبسك في الداخل... أنا... أنا

آسف... وكذلك تيريز. لا يجب أن تغضبي منها... لطالما أحبتك، وأظنني أحبك كذلك... لكننا كنا نتظاهر بكراهيتك.

ضغطت على كتفيه :

ـ أنا لست غاضبة من أي منكما... كنت أحب المكائد مثلكما وأناطفلة... وهذه مجرد مزحة.

صوته الرزين ذكرها بصوت باتريك :

ـ لا... ليست مزحة، ولطف منك أن تهوني علينا... أواثقة أن أبي سيأتي؟

ـ متأكدة... لنتحدث عن شيء آخر... عن الميلاد والهدايا... تنفست عميقاً لتهدىء من روعها... المكان موحش مظلم رطب هنا... لكن على الأقل، الولدان سالمان. وهي واثقة تماماً أن باتريك سيأتي في النهاية.

وبدأت تصف لهما كيفية صنع حلويات الميلاد في إنكلترا.

* * *

- ٩ -

نور الشمس

كانت آنا قد فقدت كل حس بالوقت حين تهادى صوت باتريك هادئاً، رابط الجأش، يقول من مكان ما فوقها :

- أعطني تيريزا أولاً. إرفعيها قدر ما تستطيعين آنا... وأنت صغيرتي إرفعي يديك الى فوق كي أستطيع التقاطك.

إنتظر حتى تمكنت آنا القليلة الحس، لفرط راحتها والسعادة لسماع صوته، من أن تقف بحذر وترفع الفتاة... كان هذا صعب عليها لوجود أحجار تتمايل تحت قدميها ولأن تيريز ثقيلة الوزن. لكنها تمكنت من الصمود الى أن أحست أن وزن الفتاة يرتفع عن ذراعيها المتعبين بعد أن سحب باتريك إبنته سالمة.

- والآن سيمون...

إمتدت يد باردة تمسك بيد آنا...

بابا... سأكون الأخير... ليس من اللطف أن تترك آنا لوحدها في الظلام... إنها فتاة.

شدّت آنا على اليد الممتدة اليها في الظلام... الظروف بالكاد تكون ملائمة لبدء الصداقة، لكن يبدو أنهما تمكنا من هذا...

وجاء صوت باتريك متمهلاً :

- كلام رجال يا بني... لكنني أحتاجك معي هنا للعناية بتيريز. إنها خائفة.

تكلمت آنا من فم جاف من الخوف :

- صحيح... والدك محق يا سيمون، وتيريز تفعل دائماً ما تقوله أنت لها.

ردّت اليد الرقيقة الحلوة على ضغط يدها ثم إنسحبت :

- لكنني ثقيل...

- ولحسن الحظ أنا طويلة.

ركزت نفسها على كومة الأحجار مرة أخرى، ورفعته، كان الأمر أسوأ من رفع تيريز، وأحست بأن ذراعيها ستنكسران في اللحظات القليلة قبل أن تصل ذراعا باتريك الممدوتين لترفع الصبي الى جانبه... كانت الظلمة شديدة، والحجارة الملوّنة تحت قدميها بدأت بالتزحزح من تحتها. ولولا هدوء باتريك، لصرخت رعباً ولو أن هذا سيخجلها الى الأبد. وجاء صوته دافئاً مطمئناً :

- خائفة آنابيلا؟ سأخرجك في بضع ثواني، إفعلي فقط ما أقوله لك. إرفعي يديك الى فوق قدر إستطاعتك... ولا تفكري بالفراغ من تحتك. وحين أقول : إقفزي يا عزيزتي!

- أقفز؟... لن أستطيع... أوه لن أستطيع! سأكون أقل إنخفاضاً مما كان الولدان.

تحركت الحجارة من تحت قدميها مرة أخرى، ثم إستقرت...

صوتها، الذي تمكنت حتى الآن من أن تبقيه هادئاً... إرتجف :

- باتريك! أنا خائفة!

- طبعاً خائفة... لكنني لن أخذلك. أعدك... خذي نفساً عميقاً وحين أقول، إقفزي... إفعلي ما أقول آنا.

هدوء آثر عليها، ما عدا عن أنه وعدها... حين سمعته يقول : الآن! قفزت ذراعاها ممدودة في الهواء الى آخر مدى... وأحست بالحجارة تحتها تنهار وتبتعد.

يداه كانتا كالحديد حول معصميها، وكادت ذراعاها تخرجان من معضلي أكتافها. وجائها صوت باتريك المرتاح.

- إسترخي عزيزتي...

ثم أخذ يرفعها شبراً شبراً، يمد يديه على ذراعيها الى أن أصبحا عند المرفقين... بقيت متدلية هكذا لبضع ثواني بينما كان يجذب نفسه الى الوراء، ثم يركع على ركبتيه، ووقف ليلوح بها الى فوق ويطبق ذراعيه حولها بقوة...

كان يتنفس بصعوبة، قلبه يخفق بسرعة. وأحست بقلبه يضرب أذنها المرتاحة على صدره... وكأن ضربات قلبه تطمئنها أنها آمنة الآن.

سألت مفزوعة :

- الولدان؟

- هناك في الزاوية.

إنطفأ المصباح اليدوي الذي يحمله فجأة، فتركها ليخرج ولاعته شعلتها الضعيفة جعلت من الغرفة الصغيرة القذرة الرطبة أكثر هولاً... لكن على نورها شاهدت آنا شيئاً... كان هناك شموع

في حالتان محطمتان للشموع، فطارت عبر الغرفة تحملهما الى باتريك الذي أشعلها وحملتهما بإنتصار تتلفت لترى أين تضعهما كي يتمكنا من الخروج من الكوخ المهتريء بأمان وسرعة. وجدت رفاً لا يزال سالماً، وضعتهما عليه وإلتفتت الى باتريك لتراه يركع الى جنب ولديه يتفحصهما فسألته :

- هل هي بخير؟

- أعتقد هذا، رضوض وجرح أو إثنين... وأنت؟

ردّت بمرح :

- لن أكون أفضل حالاً مما أنا عليه الآن.

كانت ذراعاها تؤلمانها كثيراً، ولا تستطيع تحريكهما، لكن لو توقف الآن ليتفحصهما فقد لا يخرجون من هنا... وسمعوا قرقعة أحجار تنهار من مكان ما تحتهم، فقال باتريك :

- أظن أن الوقت حان لنخرج من هنا.

إلتقط إحدى الشمعتين، وأمسك بيد تيريز الباكية.

- سيمون، إبقَ قريباً-من آنا، وخلفي تماماً.

تسلقوا السلم المهتز بأمان، ووصلوا الى الممر الضيق ليفتح باتريك الباب ويطفيء الشمعة... كانت الأمسية لا تزال مضيئة بما يكفي... وما أن شاهدت تيريز الجروح والكدمات في يديها وساقيها حتى إنفجرت مجدداً بالبكاء... ولم يكن سيمون أفضل حالاً... لكن الأسوأ كانت آنابيلا، التي خرجت بيد مجروحة جرحاً بالغاً حين قفزت الى الأسفل... فستانها ممزق، شعرها مليء بالغبار وخيوط العنكبوت، وفوق كل هذا ألم ذراعيها حيث وضع باتريك يديه ليسحبها. حتى باتريك لم يسلم من الأذى،

فقميصه كان ممزقاً ومليئاً بالغبار. حين أصبحا في الزقاق الضيق، وضع سترته في السيارة وحمل تيريز الباكية ليضعها في المقعد الخلفي ودخل سيمون خلفها، ثم فتح الباب لآنابيلا... حين صعد الى جانبها القى نظرة على ذراعيها ويدها ووجهها :

- تبدين سالمة بما يكفي... ولا بدّ أن ذراعاك يؤلمانك.

أكملوا الطريق الى المنزل بصمت، ما إن وصلاه حتى سألت :

- كيف عرفت أين نحن...؟

- لم أعرف... جربت كل مكان معقول، وكل مكان إقترحته المربية وبيار... ثم تذكرت أنني سمعت سيمون مرة يتحدث عن الكوخ الذي كان للمربية... وكانت رمية من غير رامي...

على الفور إنفتح الباب وخرج بيار راكضاً تلحقه المربية والسيدة جايمس... كان باتريك يحمل تيريز بعد أن ساعد آنا في الخروج، فأعطاها لبيار ودخل مع البقية الى المنزل وقال لآنا :

- حمام ساخن على الفور... سأتفحصك فيما بعد... أحضري لها الشاي سيدة جايمس... إنها تحتاج الى ما يدفئها.

وإختفى مع إبنته لتلتفت آنا الى سيمون :

- سيمون ستفعل ما قاله أبوك... حمام ساخن ثم الى الفراش كي يستطيع أن يعتني بك... كنت ولداً شجاعاً.

إبتسم لها :

- كنت أرغب في أن أفعل ما قد يفعله إبنك... وسأدعوك من الآن وصاعداً «ماما».

شكرته ثم إستدارت بسرعة كي لا يرى أحد دموعها تنهمر فوق وجهها المتسخ. وبكت جيداً في المغطس الساخن... ثم

جلست هادئة فوق كرسي طاولة الزينة ليتفحصها باتريك... كانت قد إغتسلت تماماً ووضعت بعض الماكياج لوجهها... ذراعيها كانتا متورمتين، وتحول الإحمرار الى لون قاتم... لكن الألم كان أفضل بكثير كما أكدت له وهو يضع البلاستر على جرح يدها. وسألته عن الولدين... فأكد لها أنهما بأفضل حال... وأن المربية اعطتهما العشاء وهي الآن في الفراش... ولامس خدها برقة :

- أنت فتاة شجاعة عزيزتي... وكلنا الآن مدينون لك.

أرادت أن تمسك بيده، تبقيها على خدها الى الأبد... لكن كل مافعلته هو أن قالت :

- الولدان كانا رائعين... ويجب أن تكون فخوراً بهما.

- بماذا كنت تفكري وأنت منتظرة في الظلام؟

كادت تقول : بك أنت... لكنها تراجعت.

- أوه... بالولدين... ووضعت معهما الخطط للإحتفال بعيد الميلاد، مع أن الوقت مبكر. وأن على السيدة جايمس أن تصنع قالب حلوى بالشوكولا لأن أصدقائهما قادمون يوم السبت وتحدثنا كثيراً... وأخبرتهما عن بلادي، عن قريتي...

- وهل فكرت براودون؟

- في الواقع أجل... فكرت به... حاولت تصور ما قد يفعل لو كان هنا...

- وضحكت... لكنها لم تستطع أن تكمل ما كانت تود قوله... كانت تريد أن تقول أنه لم يبدُ لها أنه واقعي... بل مجرد خيال. وأنها لم تكن واثقة أبداً أنه كان سيجيء لإنقاذها... فقد قاطعها باتريك بصوت هادىء وهو يتلمس ذراعها.

www.elromancia.com

- كنت أنانياً معك... لماذا لا تعودي الى إنكلترا الأسبوع أو أسبوعين لزيارة جدتك وأصدقائك؟

نظرت اليه مذهولة وقلبها يهبط... إنه يريدها أن تبتعد عن طريقه... ربما تصيبه بالضجر حين يكونا معاً... لا بدّ أن هذه هي المسألة... وهذا هو سبب عدم إجتماعهما معاً في الآونة الأخيرة... كرامتها دفعتها الى التصلب، وجلبت الخشونة الى صوتها :

- سأحب أن أفعل هذا... ولبضعة أيام... ألا تمانع؟

- لا... أبداً.

وهما تتناولان العشاء تحدثا عما جرى وأعلمها أنه تدبر أمر من يقفل الكوخ جيداً ويسده بألواح الخشب كي لا يقع لأحد ما وقع لولديه، ثم تنهد :

- أعتقد أن من واجبي معاقبتهما.

- لا... أرجوك، ما حدث كان بدافع الفضول، وتصرف فضول الأطفال. وما لاقياه من رعب يكفي عقاباً لهما.

- حسناً... كما تقولين عزيزتي، لكن في الوقت المناسب سأعرف دوافعهما الحقيقية.

إكتشف باتريك تلك الدوافع في وقت أبكر مما تتصور... فحين تمنت آنا لهما ليلة طيبة، وأبلغتهما أن والدهما يريد منهما النوم، ثم خرجت الى غرفتها، غادرا الفراش وإرتديا روبيهما ونزلا الى مكتبة إبيهما... مع أنه كان قد أمرهما بالنوم منذ ساعات إلا أنه لم يبدي الدهشة...

دعاهما الى الجلوس مرحباً، لكنهما رفضا، وقالت تيريز :

- يجب أن نبقى واقعيين أبي... لدينا شيء نقوله.

إستلم الحديث سيمون مكملاً :

- الأمر يتعلق بآنابيلا... أردنا أن نخيفها... لم نكن نريد أما جديدة... كنا سعداء دونها... وحين أخبرتنا عنها إتفقنا على أن لا نحبها... لذا لم نحاول صداقتها... لم نكن فظان معها بمعنى الكلمة... لكنها كانت ترغب في مصادقتنا ولم نعطها الفرصة... لكنها لم تقل شيئاً حين وجدت الفأر في سريرها... ولم تقل لأحد، ثم حاولت إفساد فستانها ولم تقل لك... بعدها حطمنا العلبة الموسيقية وعرفت أننا من فعلنا لكنها وضعت اللوم مع الريح... مع ذلك لم تكن ترغب أن تكون أمنا... فهي كالغريبة، كالزائرة، حتى أنها تنام في غرفة لوحدها. وليست كالأم الحقيقية.

أخافه تجهم وجه أبيه فصمت، لكن باتريك طلب منه أن يتابع فقص عليه الخطة التي وضعاها في جرّها الى الكوخ وإيقاعها في القبو ثم إقفال الباب عليها كي تخاف وترحل.

- لكن حين جاءت وحاولت إخراجنا ولم تنجح...، قفزت الى القبو لتكون معنا... كانت شجاعة جداً بابا.

عوّلت تيريز باكية:

- وكانت كأمنا تماماً... أخبرتنا القصص... وطمئنتنا أنك ستأتي لأنقاذنا... بابا... نريدها أن تبقى وتكون أمنا... لقد أحببناها جداً ونحن آسفان لما فعلنا معها.

برقت عينا باتريك، لكنه قال بهدوء :

- أعتقد أن عليكما الذهاب اليها في الصباح وتطلبا أن تسامحكما وتبقى معنا.

- ألست غاضباً منا، بابا؟

- لا... أبداً... أنا لا أغضب منكما إطلاقا.

كانت آنا تجلس في الفراش تشرب قهوتها الصباحية تقاوم الصداع حين قرع الباب... للحظات سعادة ظنت الطارق باتريك، لكنها أخفت خيبتها وطلبت من الولدين الجلوس على حافة السرير. وكان يبدو عليهما التجهم :

- ما الأمر عزيزاي؟

حاولت تيريز أن ترد لكنها سرعان ما إنفجرت بالبكاء فتدخل سيمون يقص عليها كل شيء، وكيف أنهما كانا مصممان وحتى قبل أن تصل الى هنا على أن لا يحباها، وأكمل بوجه أحمر :

- أنت لم تمانعي بأي شيء فعلناه معك ولم تخبري أبانا حتى بعد أن سألك... أرجوك... هل تبقين معنا؟ نحب كثيراً أن نكون ولداك، إذا قبلت بنا... لا نريدك أن تذهبي!

نسيت ألم ذراعيها وهي تلفهما عليهما وتضمهما اليها... وقالت باكية :

- أوه يا عزيزاي... لا تعرفان كم جعلتماني سعيدة، سأتمتع جداً في أن يكون لي إبن وإبنة... وسنكون سعداء جداً.

خرج الولدان ليرتديا ثيابهما إستعداد للفطار ثم المدرسة. وكانت تشرب فنجان القهوة الثاني حين دق الباب ودخلت المربية لتقف قرب الفراش ثم تدقق الكلام منها، لكن بتكرار جعل آنا تفهم ما تقول... إنها آسفة جداً لتصرفها السيء مع السيدة...

وترجوها أن لا تبعدها عن الولدين... لقد كانت إمرأة شريرة والآن تدرك كم كانت مخطئة.

أمسكت آنا بيدها وطمأنتها بما تعرفه من الفرنسية أن الولدان يحبانها، وأنها يجب أن تتركهما. ثم شدتها نحوها لتقبلها على خدها وتشد على يدها :

- آمي...؟

إنحدرت دمعتان صعبتان على خد المرأة المسنة :

- وي... آمي... پور توجور مدام.

كان الوقت لا يزال باكراً فخرجت من السرير وإرتدت ثيابها لتنزل الى حيث وجدت باتريك والولدان على مائدة الإفطار... وقف باتريك فوراً لرؤيتها :

- عزيزتي... توقعت أن تبقي في الفراش.

إبتسمت له مشرقة.

- لست مريضة... شكراً لك مجرد ألم بسيط.

سارع الولدان يصبان لها الشاي، ويقدمان التوست... راقبتهما والإبتسامة تغطي وجهها... بينما كان باتريك يراقبهما بسعادة... ثم قال أنه سيعود وقت الغداء، ولربما تمكنا من الكلام ساعتها.

لقد بدأ يومها جيدً... وسيكون مكتملاً تماما... أو تقريباً... فلا شيء بالنسبة لها سيكون مكتملاً ما لم يحبها باتريك... لكنها على الأقل إكتسبت الآن حب ولديه... وهذا أمر رائع... كذلك محبة المربية الذي جعلها تحس وكأنها غزت ألب فرنسا التي لم يتمكن هنيبعل بكل عظمته أن يغزوها.

إستمرت حالة البهجة تتملكها حتى وقت الغداء، حين أخبرها باتريك وهما يتناولان أنه إشترى لها تذاكر السفر. فحدقت به مذهولة :

- تذاكر السفر؟ وهل كنت جاداً حول زيارتي لجدتي؟

هزّ رأسه :

- بالمركب... تفضلين هذا أليس كذلك؟

- لكن باتريك... لا يمكنني الذهاب... لا أستطيع... الولدان... أنت شعرت أنهما يريداني.

إبتسم لها :

- لكنني أريدك أن تذهبي آنا.

- لماذا؟

- كلانا يعرف السبب، ولا حاجة لذكره... أعلم أن الولدان مهمان لك... لكن هذا مهم كذلك... أنت لست سعيدة حتى بعد أن إعترفا أنهما يحبانك.

تمتمت بعبوس :

- لا... لست سعيدة... لكنني لا أريد الذهاب... لكن لو ذهبت... أنت... أنت... تريدني... أن أعود باتريك؟

- هذا أمر عائد لك آنا... سأتصل بجدتك.

وما الذي يهم بعد الآن؟ إنه لا يريدها في منزله... إنه ينظر اليها كمجرد شريكة في صفقة تجارية... أما كفتاة كأنثى... إنها مخطئة لو ظنت أنه يهتم بها... ربما السبب سارة على أي حال... وهذا أمر لن تحتمله.

وقفت يوم الرحيل تلوح للولدين وهما ذاهبان الى المدرسة... ربما هي متشائمة... ربما سيترك باتريك لها المجال لتكلمه، فأذا

كانت سارة هي السبب... ستقول له أنها لن تتدخل بينهما... وراجعت ما ستقوله جيداً وهي تنهي توضيب حقائبها... ثم خرجت الى الحديقة.

كانت تلتقط الأزهار التي ستزين بها مائدة الغداء حين جاء بيار يبلغها رسالة من باتريك بأنه لن يتمكن من الحضور للغداء... وأن بيار سيوصلها بالسيارة الى كاليه حيث تستقل المركب الى دوفر... وصاحت :

- لكن... لا يمكنه أن يفعل بي هذا! بيار... أواثق أنت مما تقول؟

- أوه... أجل سيدتي... مع أن الأمر لا يعجبني.

وضعت الزهور في الفاز دون ترتيب، وخلعت قفاز الحديقة... كانت تعاستها أبعد بكثير من الدموع... لا شك أنه لا يرغب في حرج الوداع. أو أن يعطيها فرصة للكلام معه. لكنه رجل لطيف... ولربما ظن أن من الألطف أن يتركها تذهب دون رؤيتها مجدداً.

أحست بالإستغراب وهي تصعد الى السيارة... فقد تحلق الجميع حولها، يودعونها ويتمنون عودتها السريعة... وتوسلت للمربية أن تعتني بالولدين، وللسيدة جايمس أن تضع لهما قالب حلوى مميز في نهاية الأسبوع.

حين أصبحت في السيارة قرب بيار طلبت منه أن لا يتجاوز باريس بل أن يمر بها ويوصلها الى مكاتب الشركة :

- لن أتأخر هناك... لكن هناك شيء أريد أن أقوله لباتريك... أعني...

- لا بأس عليك سيدتي... لا داعي للشرح... لست أحمقاً ولحسن حظ المعلم أنك تحبينه هكذا.

كلامه أسكتها تماماً... وأمضت الساعة التالية صامتة الى أن نزلت امام مدخل الشركة وصعدت الى مكتبه. السكرتيرة في مكتب الإستقبال كانت غريبة عنها... حين سألتها عن باتريك أجابت بأدب أن من المستحيل عليها أن تقابله قبل ساعة على الأقل أو يزيد.

- لكنني زوجته.

- آسفة جداً سيدة دوبارت... لكن الأمر مستحيل...

هل أعطى تعليماته بأنه لا يريد رؤيتها؟ قاومت رغبة البكاء، وقالت :

- أعلميه أنني هنا.

ردّت السكرتيرة بأدب متصلب :

- لا أستطيع مدام.

بدأ كل شيء في داخلها يغلي، ويرتفع الى رأسها، وقفت عن الكرسي الذي أجلستها السكرتيرة عليه قبل أن تتمكن الفتاة من فعل شيء، ثم سارت الى أقرب الأبواب... ستفتح كل الأبواب الى أن تجده في غرفة من هذه الغرف... فتحت الباب الأول قبل أن تصل السكرتيرة اليها وتسمع صوتها الملحّ في أذنيها... الغرفة كانت واسعة في منتصفها طاولة طويلة، حولها الكراسي تجعل قسما منها عدة أشخاص رزيني المظهر، متجهمي الوجه، وعلى رأسها يجلس باتريك.

- آسفة لمقاطعتكم أيها السادة... السكرتيرة حاولت منعي... أريد أن أكلمك في أمر عاجل باتريك.

وضع باتريك يده على ذراعها وقادها الى مكتبه، وقدم لها مقعداً ثم وقف ويداه في جيبي بنطلونه :

- وماذا ترغبين في أن تقولي لي آنابيلا؟

- أنا لست شجاعة بما يكفي... لكنني على ما يرام الآن. قال لي بيار أنه سيأتي بي الى هنا لأراك.

- إذن بيار يعرف ما تريدين قوله؟

- لقد خمّنه.

- وهل علي أن أخمنه كذلك؟

- لا... لن تخمنه ولو بعد مئة سنة... أنا لن أعود باتريك

- كنت أعرف هذا... فالحياة لم تكن مليئة بالورود بالنسبة لك في منزلي... أعرف كل ما فعله الولدان، وأعرف عدائية المربية وبالنسبة لسارة لن تصدقي لو قلت لك أننا مجرد صديقان وأنها ستتزوج قريباً من حبيب قديم لها... وهكذا أرى أن لك كل الحق في تركي... تركنا... آنابيلا.

- لا شيء من كل هذا يهمني... وما كنت لأتركك لأي سبب منها... كان كل شيء سيصطلح في النهاية... لكنني بكل غباء وسخف : وقعت في حبك باتريك... ستجد هذا صعب التصديق... لكنني لم أحب من قبل... بل ظننت أنني أحب... والأمر مختلف تماماً.

هزّ رأسه وردّ بهدوء :

- أجل... الأمر مختلف... أليس كذلك؟ ظننت نفسي أحب أكثر من عشر مرات... بما فيها زوجتي السابقة... لكن حين وقعت في حبك... عرفت أن ما من مرة من المرات لها أي تأثير...

فقط أنت... يا حبيبتي.

وقع قفازها من يدها وحدقت به فاغرة الفم.

- أنت... تحبني؟... لكنك لم تقل هذا مرة.

- لأنني كنت أخاف... لم أكن واثقاً من شعورك نحو راودون. أكثر من مرة كدت أقول أنني أحبك، وفي كل مرة كان شيء ما يمنعني... كنت أؤمن أنني لن يرتاح لي بال حتى تعودي الى إنكلترا وتقابليه...

تقدم نحوها ليمسك بها ويضمها بقوة حتى أحست بألم عظام صدرها :

- أتذكرين حين أخرجتك من القبو المظلم، وحملت الشمعة...

قاطعته :

- نظرت الي بشكل غريب وتمتمت بشيء لم أفهمه.

- قلت «بالشمس وضوء الشموع»متذكراً قصيدة لشاعر من القرن الثامن عشر يقول : حبك حاجة ملحة لي، ترقى الى إحتياجي كل يوم، الى حرارة الشمس وضوء الشموع.

- أهذا صحيح باتريك؟

ضمها الى صدره بحنان كان بالنسبة لها أبلغ من الكلام... لكنها تمتمت :

- كل هؤلاء الرجال...

- إنه إجتماع... يا أعز الناس، ولم يعد مهما. ماذا فعلتي ببيار؟

- إنه في الخارج ينتظر... هل يريدني الولدان حقاً كأم لهما؟

- أوه بكل تأكيد... لكن الأهم... أنني أريدك زوجة.

- وماذا عن الجدة المنتظرة.

- سنبلغها حال أن نعود يا حبيبتي... وهذا يعني على الفور.

كان بيار يجلس بهدوء وصبر يقرأ صحيفة إنكليزية وبادرهما :

- سنعود الى المنزل، اليس كذلك؟. هذا ما أسميه نهاية سعيدة.

لف باتريك ذراعه حول كتفي آنا :

- سآخذ مدام دوبارت معي في السيارة... فأذهب لوحدك.

أدخل الحقائب ودعهم يفرغونها... وشكراً.

والتفت الى آنابيلا :

- هذا فستان رائع... ويعجبني حبيبتي. هل إرتديته خصيصاً للتأثير عليّ؟

نظرت الى وجهه الهادىء الحبيب :

- لا... لكنني أحسست كمن يذهب الى المقصلة ويحاول أن يظهر في أحسن حالاته.

إبتسم بإسترخاء، واضعاً يديه على كتفيها.

- أنت جميلة جداً...

وإقترب رأسه منها عيناه على شفتيها، فصاحت برغب وعجل :

- أوه... حبيبي... باتريك... ليس هنا... لا تستطيع...

- لا أستطيع؟

وفعل.

* * *